سأحكي لكم

بسم الله الرحمن الرحيم

د. طارق البكري

سأحكي لكم

مجموعة من القصص لليافعين

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2014-1436

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

دمشق - القاهرة - الشارقة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 3426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

أولاً

حكاياتٌ عربيّةٌ

١ ــ ابنُ المقفَّعِ: صاحبُ كتابِ «كليلةُ ودمنةُ»

٢ ـ ابنُ ماجدٍ: أسَدُ البحارِ

٣ ـ عبّاسُ بنُ فرناسَ: الطّيّارُ الأوّلُ

٤ ـ بلقيسُ: ملكةُ سبأ

٥ ـ جحا: الحكيمُ المضحكُ

٦ ـ ابنُ النَّفيس: الطبيبُ الأنيسُ

٧ ـ ابنُ سينا: الطبيبُ العالمُ

٨ ـ عامرٌ وجابرُ بنُ حيّانَ

١ ـ ابنُ المقفَّعِ: صاحِبُ كِتابِ كَليلَة ودمْنَة

هل سمِعتُمْ يا أصدقاءُ يوماً بابنِ المُقَفَّعِ؟

لو لَم تَسمعوا به أنا متأكّدٌ أنَّكم سمعتُم قِصصاً منْ قِصصهِ الكَثيرةِ التي يَرْويها النّاسُ من كتابِهِ الشَّهيرِ «كليلة ودمنة».

وُلِدَ عبدُ اللهِ بنُ المقفَّعِ في قريةٍ من بلادِ فارس في حدودِ عام (٧٢٤) ميلاديّة، أي: في مطلعِ القَرنِ الهِجْريِّ الثّاني، وكان مجتَهداً مُنذُ الصِّغَرِ، يُحبُّ العِلْمَ وتعلُّمَ اللُّغاتِ، فدَرَسَ العَرَبيَّةَ وبَرَعَ فيها.

تَعَلَّمَ ابنُ المقفَّعِ إضافَةً إلى الفارسيَّةِ والعَرَبيَّةِ اللُّغَتَيْنِ اليونانيَّةَ والهنديَّةَ، وكانَ فيها جميعاً فصيحاً بليغاً، وقضى معظمَ أيام عمرِهِ القَصيرِ بينَ الكتبِ والمكتباتِ. لم يشغلْ نفسَه بغيرِ العلمِ ومُجالسةِ العلماءِ، وامتازَ بأنَّه كانَ أديباً وكاتباً وشاعراً.

سُئلَ يوماً: مَنْ أدَّبَك؟ فأجابَ: «لقدْ أدَّبَتْني نفْسي؛ إذا رأيتُ مِن غيري حَسَناً آتيه، وإنْ رأيتُ قَبيحاً تَركتُه».

مِنْ أَشْهرِ كُتُبِه «كليلة ودمنة»، وهو مجموعَةٌ منَ الحِكايات المسَلِّيةِ المضْحِكَةِ والمُفيدَةِ، على لسانِ الحَيوانِ، وكتابُ «كليلة ودمنة»، مجموعةُ قصصٍ ترتبطُ بالحكمةِ والأَخلاقِ.

قيل: إنَّها تعودُ لأصولٍ هنديَّةٍ مكتوبة بالسنسكريتيَّةِ؛ وهي لغَةٌ قَديمةٌ جدّاً.

وقالَ البعضُ: إنّ (كليلة ودمنة) قصصٌ لفيلسوفٍ هنديٍّ يُدْعَى (بيدبا)، حيثُ يروي قصةً

عَن ملكٍ هنديٍّ يدعَى (دبشليم)، طَلبَ من حكيمِه أنْ يؤلِّف له خلاصةَ الحكمةِ بأسلوبٍ مسلٍّ.

ويقالُ: إنَّ ابنَ المقفَّعِ ترجمَ هذه الحكاياتِ عنِ الفارسيَّةِ، وإنّها هنديَّةُ الأصلِ، لكنّ هناك من يؤكِّدُ أنّ (كليلة ودمنة) أصلُها عربيٌّ، ومن تأليفِ ابنِ المقفَّعِ نفسِهِ.

و بالرغمِ من وفاتِه في سنٍّ مبكرةٍ؛ فإنّ عبدَ اللهِ بنَ المقفَّعِ تركَ أثراً كبيراً عندَ العربِ وغيرِهم من الشُّعوبِ، ولا يزالُ هذا التَّأثيرُ مستمراً حتى يومنا الحاضرِ.

ومن جميلِ ما يُذكرُ أنّ كتبَهُ التي ترجمَها عنِ الفارسيَّةِ والهنديَّةِ والبنغاليَّةِ واليونانيَّةِ أفادَتْ أصحابَ هذه اللُّغاتِ فيما بعدُ؛ لأنّ كثيراً من تلكَ الكتبِ ضاعَتْ أصولُها في لُغاتها الأصليَّةِ، فَعادوا وترجموها عنِ اللُّغةِ العربيَّةِ كما كتبَها ابنُ المقفَّعِ.

توفِّيَ ابنُ المقفَّعِ وهو صغيرُ السِّنِّ وعمرُه لا يتجاوزُ (٣٦) سنةً، أو أكثر من ذلكَ بقليلٍ، ورغمَ وفاتِه المبكرةِ؛ فإنَّ شهرتَهُ عمَّتِ الدُّنيا، وكلّ ذلكَ بفضلِ عِلْمِه الواسعِ الذي ملأَ قلبَهُ وعقلَهُ.

٢ ـ ابنُ ماجدٍ: أَسَدُ البِحارِ

في زمانٍ بعيدٍ، كانَ هنالكَ فتى صغيرٌ اسمُه (أحمدُ)، يعيشُ في منطقةٍ جميلةٍ قربَ البحرِ، وكانَ البحرُ صديقاً له منذُ الصِّغرِ، وكانَ أبوهُ بحّاراً كما كانَ جدُّهُ.

ولم يكنْ أبوهُ بحّاراً عاديّاً، بلْ كانَ ربّاناً مَعروفاً في زمنِه، مشهوراً برحلاتِهِ ومغامراتِه البحريَّةِ؛ حتى أطلقَ البحّارةُ علَيه لقبَ (ربان البرَّين) أي: برّ العربِ وبرّ العجمِ لكثرةِ أسفارِهِ ورحلاتِه.

وفي يومٍ منَ الأيّام الجميلةِ؛ اجتمعَ كثيرٌ منَ الأصدقاءِ، وأهلِ المنطقةِ يستمعونَ إلى حديثِ البحّارِ ماجدٍ، وجلسَ في جوارِه ابنُه أحمدُ؛ ينصتُ ويستمعُ باهتمامٍ بالغٍ لحديثِ والدِهِ الشيّقِ.

وفيما كانَ الأبُ يروي قِصصَهُ ومغامراتِه البحريَّةَ الكثيرةَ، كانَ أحمدُ يتأمَّلُ ما يقولُه الأبُ وهو يَحكي ويسردُ العَجائبَ التي رآها في رحلاتِهِ.

أحمدُ صغيرُ السنِّ؛ لكنَّهُ بعدَ أنْ أسعدَهُ ما سمعَهُ من والدِهِ من مغامراتٍ، طلبَ من أبيه أنْ يأخذَهُ معهُ في رحلتِهِ المقبلةِ.

فرحَ الأبُ كثيراً بِطلبِ ابنِه، ورأى فيه بحّاراً كبيراً في المستقبلِ؛ فقالَ له:

«ما زلتَ صغيراً يا ولدي على مثلِ هذهِ الرحلاتِ الشّاقَّةِ!».

فقالَ أحمدُ مُصرّاً: «أريدُ أنْ أرَى بلادَ العجمِ، وأشاهدَ بعيني العجائبَ التي ترويها لنا».

وعدَ الأبُ ابنَهُ بأنَّهُ سوفَ يأخذُهُ معه بعدَ أنْ يكبرَ قليلاً؛ خاصَّةً أنَّ الرّحلةَ القادمةَ أصبحَتْ قريبةً. وعندَما حانَ موعدُ الرِّحلةِ، ذهبَ أحمدُ إلى الشّاطئِ مودِّعاً أبيهِ، وظَلَّ يتأمَّلُ السَّفينةَ حتى غابتْ خلفَ البحرِ، وعادَ الطّفلُ حَزيناً، ويتمنَّى لو رافقَ أباهُ في رحلتِه هذه.

تذكَّرَ أحمدُ ما قاله له أبوهُ قبلَ أنْ يرحلَ: «أعدُكَ يا أحمدُ بأنْ آخذَكَ معي في الرّحلةِ المقبلةِ لو أتقنتَ القراءةَ والكتابةَ، وحفظتَ كتابَ اللهِ، وتعلَّمتَ الحسابَ، وقرأتَ كلَّ الكتبِ التي كتبتُها عن رحلاتي السّابقةِ، إضافةً إلى ما كتبَه البحّارةُ السّابقونَ عن رحلاتِهم».

أسرعَ أحمدُ إلى البيتِ، ودخلَ مكتبةَ أبيهِ وبدأَ يقرأُ ويقرأُ، وذهبَ إلى حلقاتِ التّعليمِ في زمنهِ، وكانَ حريصاً على العلمِ والتّعلمِ، ثمَّ يعودُ إلى البيتِ ويقضي ما بقيَ من نهارٍ في قراءةِ الكتبِ التي كتبَها أبوهُ، والتي كتبَها كثيرٌ من البحّارةِ؛ فقدْ كانَ أبوهُ يحتفظُ بمكتبةٍ كبيرةٍ.

اطّلعَ أحمدُ على كتابٍ جميلٍ جدّاً؛ كتبهُ أبوهُ وكان عنوانُه: (الأرجوزةُ الحجازيّةُ)، وكانتْ تضمُّ ألفَ بيتٍ في وصفِ الملاحةِ في البحرِ، فأمضى وقتَهُ بقراءتِهِ وحفظِ ما فيه.

وعندما عادَ أبوهُ من رحلتهِ بعدَ أشهرٍ، رأى ابنَهُ على هذا الحالِ من التقدُّمِ في العلمِ والمعرفةِ، ففرحَ كثيراً، وقالَ له أنَّهُ سيوفي بوعدِهِ له، ويأخذُهُ معَهُ في رحلتهِ المقبلةِ بعدَ أنْ أثبتَ إصرارَهُ وحرصَهُ على أنْ يكونَ بحّاراً، وقبلَ أنْ يبلغَ أحمدُ العاشرةَ منْ عمرهِ قادَ أوَّلَ سفينةٍ في حياتِهِ بمراقبةِ والدِهِ حتى يختبرَهُ، فنجحَ في الاختبارِ، وظلَّ يرافقُ والدَهُ حتى بلغَ الـ (١٧) من عمرهِ، وبعدَ أنْ تأكَّدَ الأبُ من قدراتِ ابنِهِ سمح له بقيادة السّفينةِ لوحده.

ولمْ يتوقّفْ أحمدُ عنِ القراءةِ والتعلّمِ والاطلاعِ رغمَ تحقّقِ حلمِهِ بالسَّفرِ؛ بلِ اشتدّتْ رغبتُهُ بالحصولِ على العلمِ والتعلُّمِ؛ بلْ كانَ سعيُهُ للعلمِ فيما بعدُ سبباً لسفراتِهِ ومغامراتِهِ اللاحقةِ.

ومضتِ الأيامُ، وازدادَ أحمدُ خبرةً وعلماً، وصارَ شهيراً بينَ الناسِ في بلدهِ وفي كلِّ البلادِ التي زارَها؛ بلْ أصبحَ أشهرَ ربانٍ في الخليجِ العربيّ، وأطلقَ عليهِ البحارةُ: (أسد البحارِ).

وبعدَ أنْ أصبحَ أحمدُ بحّاراً شَهيراً لمْ يتكبّر، ولمْ يتعالَ على الآخرين؛ بلْ كانَ متواضِعاً يحرصُ على العملِ بيدَيه؛ وكانَ يفحصُ المركبَ بنفسِه، قبلَ أنْ ينزلَ البحرَ ويتأكّدَ من صلاحيةِ أجهزةِ السّفينةِ وصحّةِ البحّارةِ وأحوالهمْ وراحتهمْ.

وكانَ أحمدُ خلوقاً طيّباً، فأحبّهُ البحّارةُ وأحبّهُ النّاسُ، وكانَ رباناً حكيماً، ليّناً في قولهِ، عادلاً في حكمهِ، لا يظلمُ أحداً، صبوراً ثابتَ القلبِ، دائمَ اليقظةِ قليلَ النومِ.

وكتبَ أحمدُ في كتبِهُ الكثيرةِ: (ينبغي إذا ركبتَ البحرَ أنْ تلزمَ الطهارةَ، فإنّك في السَّفينة ضيفٌ منْ ضيوفِ الباري، فلا تغفلْ عن ذكرهِ).

ومن شدَّةِ حبّهِ للبحرِ حرصَ على الاستزادةِ من كلِّ العلومِ التي ترتبطُ بالبحرِ، فتعلّمَ كلَّ ما يتعلقُ بالنُّجومِ والأفلاكِ، وحركةِ الرّيحِ والجغرافيا، وكتبَ أكثرَ من (٤٠) كتاباً، وكانَ فضلُهُ كبيراً على البحّارةِ من بعدِهِ؛ لأنّهُ هو الذي اخترعَ البوصلةَ التي تنفعُ البحارةَ في رحلاتهم.

٣ ـ عبّاسُ بنُ فرناسَ: الطيّارُ الأوّلُ

سَأروي لكمْ يا أصدقاءُ حكايةً جميلةً عنِ الطيّارِ الأوّلِ في التّاريخِ، واسمهُ عبّاسٌ، واسمُ أبيهِ فرناسُ، أي: إنَّ اسمَه عبّاسُ بنُ فرناسَ، وقدْ كانَ عبّاسٌ عالماً ومخترِعاً وشاعِراً في آنٍ معاً. عاشَ قبلَ أكثر من (١٢٠٠) سنة في مدينةِ قرطبةَ في الأندلسِ التي تُعرفُ اليومَ باسمِ إسبانيا.

كانتِ الطّيورُ تثيرُ اهتمامَ عبّاسٍ، وهي تطيرُ في الهواءِ.

أحبَّ عبّاس الطيورَ وطيرانَها، وتمنَّى لو يستطيعُ أنْ يقلّدَها ويطيرَ مثلها، وكانَ أهلُ بلادِهِ يصفونَهُ بأنَّهُ حكيمُ الأندلس. والحكمةُ كانتْ تُطلَقُ على العالمِ بالكيمياءِ والطبِّ، وقد فكَّر ابنُ فرناسَ بفكرةٍ عجيبةٍ لم يسبقْهُ إليها أحدٌ؛ وهي أنْ يطيرَ مثل الطّيورِ الجميلةِ التي تحلِّقُ في الفضاءِ؛ لكنَّ عبّاساً لم يقمْ بتجربةِ الطَّيرانِ إلّا بعدَ تفكيرٍ وبحثٍ ودراسةٍ، وخاصّةً في علمِ الفلكِ والفيزياءِ.

ولو رجعنا إلى الماضي لرأيناهُ وهو يشرحُ فكرتَهُ لتلاميذِهِ، والتّلاميذُ مِن حولِه مستغربونَ متعجِّبونَ. وعندما قرَّرَ القيامَ بتجربةِ الطَّيرانِ، قرَّرَ أنْ ينفِّذَها بنفسِه مؤمناً بنجاحِها، ولو عادَ بنا الزَّمنُ لشاهدْنا أيضاً العالمَ عبّاسَ بنَ فرناسَ وقدْ جمعَ تلاميذَهُ وعدداً كبيراً منْ أبناءِ قرطبةَ؛ ليشهدوا هذه التَّجربةَ الخطرةَ.

لم يطلبْ عبّاسٌ منْ تلاميذِهِ ـ وكانوا كُثُراً ـ أنْ يحلَّ واحدٌ منهم مكانَهُ، علماً أنَّ

العشراتِ منهم كانوا مستعدِّين لذلك؛ لكنَّهُ لم يفكِّرْ بهذا حتى لا يعرِّضَ أحداً منهم للخطرِ، مع ثقتِهِ بنجاحِ التَّجربةِ.

وأمامَ جمعٍ كبيرٍ من أبناءِ قرطبةَ، وقفَ عبّاسٌ بعدَ أنْ غطَّى جسدَهُ بريشٍ مثلِ ريشِ الطُّيورِ، وصارَ يبدو وكأنَّهُ طيرٌ ضخمٌ، رفعَ عبّاسٌ يديهِ كما ترفعُ الطّيورُ جناحَيها، ثمَّ قفزَ من مكانٍ مرتفعٍ، قفزَ عبّاسٌ مسافةً ثمَّ وقعَ، ولم يتحقَّقْ طيرانُهُ إلّا لثوانٍ معدوداتٍ، وفشلَ في تحقيقِ حلمِهِ الكبيرِ.

ومنذُ ذلكَ اليوم، والناسُ تذكرُ عبّاسَ بنَ فرناس كلَّما ذكروا الطَّيرانَ؛ الذي أصبحَ في عصرنا الحالي أهمَّ وسيلةِ نقلٍ في العالم.

رحمَ اللهُ عبّاساً الذي أصبحتْ قصَّتُهُ حكايةً ترويها الشُّعوبُ؛ حتى إنّ العلماءَ أطلقوا على موقعٍ في القمرِ اسمَ (فوهةُ عبّاسِ بنِ فرناسَ).

٤ ـ بلقيسُ: ملكةُ سبأ

بلقيسُ ملكةٌ حكيمةٌ، ورثتْ حكمَ مملكةٍ قديمةٍ اسمُها (سبأ)، تقعُ في بلادِ اليمنِ، عن أبيها الملكِ قبلَ ثلاثة آلاف عامٍ تقريباً.

تعتبَرُ بلقيسُ سيِّدةَ نساءِ عصرِها، وحكيمةَ زمانِها؛ ازدهرَ حكمُها، واستقرَّت بلادُها، وتمتَّعَ أهلُها بالرَّخاءِ والحضارةِ.

كانتْ بلقيسُ تعبدُ الشَّمسَ والنُّجومَ مثل سائرِ أفرادِ شعبِها، وذكرَها القرآنُ الكريمُ في قصَّةٍ جميلةٍ مع نبيِّ اللهِ سليمانَ عليه السلام.

أرسلَ لها النَّبيُّ سليمانُ عليه السلام يدعوها للإيمانِ باللهِ بدلاً من عبادةِ الشَّمسِ، فعرضتِ الأمرَ على عقلاءِ قومِها الذين اقترحوا عليها المواجهةَ والحربَ؛ لكنَّها كانتْ ذكيَّةً، وعرفتْ أنَّ سليمانَ عليه السلام وجنودَهُ من الإنسِ والجنِّ والحيواناتِ والطيورِ المختلفةِ أقوى منها، فقرَّرتْ إرسالَ هديَّة عظيمة له؛ لكنَّ النَّبيَّ سليمانَ عليه السلام غضبَ غضباً شديداً، فهو ليسَ بحاجةٍ للهدايا.

وعندها أيقنتْ بلقيسُ خطأَها، وقرَّرتِ التَّوجُّهَ للحديثِ مع سليمانَ مباشرةً؛ حتى لا تقومَ الحربُ بينَهما، وفيما هي في الطَّريقِ؛ أمرَ النَّبيُّ سليمانُ عليه السلام عفريتاً من الجنِّ أنْ يحضرَ عرشَ بلقيسَ إليه قبلَ وصولِها.

وعندما وصلتْ تفاجأتْ بأنَّ عرشَ ملكِها عنده؛ فقدْ أعدَّ لها سليمانُ الحكيمُ مفاجأةً

أخرى، كانتْ قصراً من زجاجٍ فوقَ الماءِ؛ ولما قالَ لها: ادخلي، حسبتْ أنَّها ستخوضُ الماءَ، فرفعتْ ثوبَها كي لا يتبلَّلَ بالماءِ؛ لكنَّ ثوبَها لم يتبلَّلْ؛ لأنَّها كانتْ تمشي فوقَ الزُّجاجِ.

أدركتْ بلقيسُ بذكائها أنَّ قوَّةَ سليمانَ ليستْ قوَّة إنسانٍ عاديٍّ، فأعلنتْ إيمانَها باللهِ الواحدِ الأحدِ، وآمنَ معها العديدُ من أبناءِ شعبِها.

ويُحكَى أنَّ النَّبيَّ سليمانَ عليه السلام تزوَّجَ الملكةَ بلقيسَ بعدَ ذلكَ، وكانَ يزورُها في مملكتِها بينَ الحينِ والآخرِ؛ حتى وفاتها بعدَ نحوِ سبعِ سنينَ.

لقدْ كانتْ بلقيسُ امرأةً عظيمةً في التَّاريخِ، وقدْ روَى القرآنُ الكريمُ قصَّتَها دونَ أنْ يذكرَ اسمَها، وذكرَها بلقبِ (امرأة).

٥ ـ جحا: الحكيمُ المضحكُ

مَنْ منّا لم يسمعْ بجحا؟! هذه الشخصيَّةُ الفكاهيَّةُ الحكيمةُ الظَّريفةُ؟!

في تاريخنا العربيِّ ـ يا أصدقاءُ ـ الكثيرُ من القصصِ عن جحا؛ لكنَّ بعضَ الثَّقافاتِ القديمةِ تنسبُ عدداً من هذه القصصِ وغيرِها إلى شخصيّاتٍ عاشتْ في عصورٍ ومجتمعاتٍ مختلفةٍ، وأطلقَ عليها البعضُ أيضاً لقبَ (جحا)؛ فكانَ هناكَ جحا التركيُّ وجحا الرّوميُّ.

وجحا من أقدمِ الشَّخصيّاتِ العالميةِ التي نسجتْ حولَها النُّكاتِ والقصصَ. وفي الأدبِ العربيِّ، نُسِبَ حجا إلى أبي الغصنِ دُجينٍ الفزاريِّ؛ الذي عاصرَ الدَّولةَ الأمويَّةَ في نهايةِ القرنِ الأوَّلِ الهجريِّ وبداياتِ القرنِ الثَّاني، وهو أقدمُ شخصيّاتِ جحا، والنّكاتُ العربيَّةُ تُنسَبُ له.

وفي الأدبِ التُّركيِّ، نُسبتْ قصصُ جحا إلى الشَّيخِ نصرِ الدِّينِ خوجه الرُّوميِّ؛ الذي عاشَ في قونية، معاصراً الحكمَ المغوليَّ لبلادِ الأناضولِ، ومعظمُ القصصِ المعروفةِ في الأدبِ العالميِّ تُنسبُ له.

واختلفَ المؤرّخونَ في شخصيَّةِ جحا، فصوَّرَهُ البعضُ كمجنونٍ أو أبلهَ، وقالَ البعضُ الآخرُ: إنَّهُ رجلٌ بكاملِ عقلِهِ ووعيِهِ، وإنَّهُ يتحامقُ ويدَّعي الغَفلةَ ليستطيعَ عرضَ آرائِهِ السّاخرةِ من الحكّامِ بحريَّةٍ تامَّةٍ.

وفي تراثِنا الكثيرُ الكثيرُ من القصصِ والحكاياتِ حولَ هذا الرجلِ الفريدِ؛ الذي يرى البعضُ أيضاً أنَّ قصصَهُ ربما تكونُ من نسْجِ الخيالِ، وفيما يلي بعضُ هذه القصصِ الطَّريفةِ:

ومن القصصِ المضحكةِ التي تُروَى عنه: أنَّهُ رأى في المنامِ شخصاً يعطيه تسعةَ دراهمَ بدلاً من عشرةٍ كانَ يطلبُها منهُ؛ فاختلفا، ولمّا احتدمَ الجدالُ قامَ من نومِهِ مذعوراً، فتكدَّرَ ولامَ نفسَهُ على طمعِها، ثمَّ نزلَ تحتَ اللّحافِ، ومدَّ يدَهُ إلى خصمِهِ الموهومِ قائلاً: هاتِها تسعةً، ولا تزعل!

- ويُحكَى أنَّ حمارَهُ ضاعَ منه يوماً، فأخذَ يفتّشُ عنهُ، ويحمدُ اللهَ شاكراً.

فسألَهُ النّاسُ: لماذا تحمدُ اللهَ على فقدِ الحمارِ؟

فقالَ: لأنّي لو كنتُ راكباً عليه لضعتُ معه.

- ومن قصصِه أيضاً أنّه شعرَ يوماً بوجودِ لصٍّ في دارِه ليلاً، فقامَ إلى الخزانةِ واختبأَ فيها، وبحثَ اللّصُّ عن شيءٍ يسرقهُ فلم يجدْ؛ فلمّا فتحَ الخزانةَ وجدَ جحا فيها، فخافَ اللّصُّ وقالَ: ماذا تفعلُ هنا أيُّها الشَّيخُ؟

فقالَ جحا: لا تؤاخذْني! كنتُ أعرفُ أنَّكَ لنْ تجدَ ما تسرقُهُ، ولذلك اختبأتُ خجلاً منك.

- وفي يومٍ كانَ قميصُهُ منشوراً على الحبلِ، فهبّتِ الرّيحُ وقذفتْه إلى الأرضِ.

فقالَ لزوجتِهِ: يلزمُنا أن نذبحَ فديةً وقرباناً.

فسألتْهُ: ولماذا؟

فقالَ: لو كنتُ ألبسُهُ لتحطَّمت.

وكانَ جحا يوماً يؤذّن ويركضُ مسرعاً، فسألوهُ عنِ السَّببِ، فقالَ:

أريدُ أنْ أعرفَ إلى أينَ يصلُ صوتي.

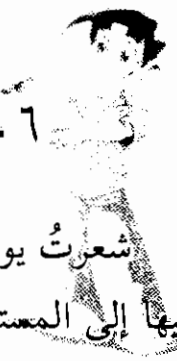

٦ ـ ابنُ النَّفيسِ: الطَّبيبُ الأنيسُ

شعرتُ يوماً بألمٍ في بطني، فأسرعَ أبي وأخذني إلى المستشفى، وكانتْ أول مرَّةٍ أذهبُ فيها إلى المستشفى.

استقبلني الطَّبيبُ وفحصني جيّداً، ثمَّ ابتسمَ وهو يقولُ: لا شكَّ أنَّ صُهيباً يتدلَّلُ علينا! هيّا انهضْ يا صهيبُ، فأنتَ على أحسنِ حالٍ، وسوفَ أعطيكَ دواءً طعمُهُ «لذيذٌ» تتناولُهُ ثلاثةَ أيامٍ ثلاثَ مرّاتٍ في اليومِ حتى لا توجعك بطنُكَ.

شكرْنا الطَّبيبَ، ثمَّ صافحناهُ وعدْنا إلى البيت، وكنتُ سعيداً بما شاهدتُه من عملِ الطَّبيبِ.

قلتُ لأبي: أحببتُ مهنةَ الطَّبيبِ يا أبي.

قالَ: نعم يا صهيب، هذه مهنةٌ من أشرفِ المهنِ وأجملِها، وعسى أن نراكَ مثلَ ابنِ النَّفيسِ؛ الطَّبيبِ الأنيسِ يوماً ما.

قلتُ بدهشةٍ: ومن هو ابنُ النَّفيسِ يا أبي؟

قالَ: خذْ دواءَكَ الآنَ، وهيّا بنا نفتحُ الإنترنت لنتعرَّفَ أكثرَ على ابنِ النَّفيسِ الطَّبيبِ.

قلتُ بحماسةٍ: هيّا بنا فوراً.

تناولتُ الدَّواءَ، ثمَّ جلستُ معَ أبي وبدأْنا نبحثُ في الإنترنت، وكانتِ المعلوماتُ كثيرةً جداً.

فقالَ أبي: أشعرُ بالتَّعبِ قليلاً. ما رأيُكَ لو تجمعُ بعضَ المعلوماتِ عن هذه الشَّخصيَّةِ، ثمَّ توجزُها في كلماتٍ بسيطةٍ؟

ضحكتُ وأنا أقولُ: اطمئنَّ يا أبي، سأفعلُ. يبدو أنَّكَ أصبحتَ عجوزاً. هيّا اذهبْ لترتاحَ، وأنا سأبقى هنا.

وتابعتُ البحثَ، وعرفتُ أنَّ ابنَ النَّفيسِ من الأطبّاءِ العربِ المشهورينَ، وقدْ وُلدَ في قريةٍ قريبةٍ من دمشقَ ـ عاصمةِ سوريا اليومَ ـ قبلَ نحوِ (١٢٠٠) سنة. وعلمتُ أنّ اسمَهُ (علاء الدِّينِ)، وكانَ محبّاً للعلمِ والفقهِ والحديثِ واللُّغةِ العربيَّةِ من نحْوٍ وصرْفٍ وبيانٍ ومعانٍ وبديعٍ.

وبعدَ أنْ عثرتُ على بعضِ المعلوماتِ المهمَّةِ، عادَ أبي وسألني: ما أكثر ما أعجبَكَ بابنِ النَّفيسِ؟

فقلتُ له: إنَّ ابنَ النَّفيسِ اشتهرَ في البدايةِ بالعلومِ النَّظريَّةِ، لكنَّهُ انصرفَ بعدَ ذلكَ لدراسةِ الطبِّ، وسببُ ذلكَ أنَّهُ مرضَ في يومٍ من الأيّامِ، وكانَ في العشرينَ من عمرهِ تقريباً، وذهبَ إلى كثيرٍ من الأطبّاءِ؛ لكنَّهُ لم يُشْفَ إلّا بعدَ فترةٍ طويلةٍ، فشكَّ بمستوى هؤلاءِ الأطبّاءِ، وقرَّرَ دراسةَ الطبِّ.

ويقولُ ابنُ النَّفيسِ عن ذلكَ: «حملنا ظنُّنا بأولئكَ الأطبّاءِ على الاشتغالِ بصناعةِ الطبِّ لننفعَ النّاسَ».

هنا قلتُ لأبي: الغريبُ يا أبي أنَّ قرارَ ابنِ النَّفيسِ دراسة الطبِّ جُوبِهَ بمعارضةٍ شديدةٍ من أهلهِ؛ لأنَّ دراسةَ الطبِّ في ذلكَ الزمانِ كانتْ شيئاً جديداً على المجتمعِ، حيثُ كانتْ

مجالسُ العلمِ فيه عامرةً بالفقهِ واللُّغةِ والحديثِ، ولذلكَ أدهشهمُ اختيارَ ابنِ النَّفيسِ للطبِّ، وكانَ والدُهُ أوَّلَ المعترضينَ؛ لكنَّ ابنَ النَّفيسِ أصرَّ على دراسةِ الطِّبِّ، راجياً أباه أنْ يمنحَهُ هذه الفرصةَ، واعداً إيّاهُ بالعملِ على بلوغِ مركزٍ متقدِّمٍ فيها.

وبعدَ نقاشٍ طويلٍ، أقنعَ ابنُ النَّفيسِ والدَهُ بأهميَّةِ دراسةِ الطِّبِّ، فوافقَ على سفرِ ابنهِ إلى دمشقَ؛ كي يدرسَ في البيمارستان (المستشفى) النوريّ، نسبةً إلى نورِ الدِّين زنكي؛ منشئِ هذا البيمارستان.

وكانتْ دمشقُ في تلكَ الفترةِ تحتَ حكمِ الأيّوبيّينَ الذينَ كانوا يعتنونَ بالعلمِ عامَّةً، وبالطِّبِّ خاصَّةً.

وتعلَّمَ ابنُ النَّفيسِ الطِّبَّ في دمشقَ، واشتهرَ به، ثمَّ سافرَ إلى القاهرةِ، والتحقَ بالمستشفى المنصوريّ، ثمَّ أصبحَ رئيساً له. وصارَ طبيباً خاصّاً للسُّلطانِ بيبرسَ ملكِ مصرَ والشّامِ، طوالَ (٢٢) سنةً الأخيرة من عمرِ الظّاهرِ بيبرسَ.

وذاعَ صيتُ ابنِ النَّفيسِ الطَّبيبِ، واشتهرَ بينَ النّاسِ بتواضعهِ ولطفهِ معهمْ، وكانَ طبيباً أنيساً، أي: صديقاً لمرضاهُ يؤانسهمْ في مرضهمْ، ورغمَ ذلكَ لم ينسَ الاهتمامَ بدراسةِ الفقهِ، فالتحقَ بالمدرسةِ المسروريةِ.

وقدْ عاصرَ في مصرَ أحداثاً مهمّةً، منها الحروبُ الصليبيَّةُ في الشامِ، واجتياحُ هولاكو والترِ لبغدادَ، وهدْمُ التّارِ لها، ما آلمهُ أشدَّ الألمِ.

وبعدَ مضيِّ (٣٩) عاماً على وجودهِ في مصرَ، وفي عام (٦٧١هـ ـ ١٢٧١م) حلَّ بها وباءٌ

اجتاحَ المدنَ والقرى، وأصابَ الناسَ إصاباتٍ بالغةً. وبعدَ نحو ستَّة أشهرٍ، استطاعَ ابنُ النَّفيسِ القضاءَ على هذا الوباءِ، فكرّمهُ المصريونَ، وقدَّموا له الهدايا، ولقّبوهُ بـ «المصري».

وبقيَ في القاهرةِ حتى وفاتهِ عام (٦٨٧هـ)، وكانَ قدْ جاوزَ الثَّمانينَ، وجعلَ دارَهُ وكتبَهُ وكلَّ مالهِ وقفاً للمستشفى المنصوريّ في القاهرةِ قائلًا:

«إنَّ شموعَ العلمِ يجبُ أنْ تضيءَ بعدَ وفاتي».

فرحَ أبي كثيراً بهذه المعلوماتِ القيِّمةِ عنِ ابنِ النَّفيسِ، ثمَّ قالَ لي ودموعُ التأثُّرِ في عينيه: هيّا يا بنَ النَّفيسِ الصَّغيرِ، هيّا! فقدْ حانَ موعدُ الجرعةِ الثّانيةِ من الدَّواءِ.

٧ ـ ابنُ سينا: الطَّبيبُ العالِمُ

ابنُ سينا يتكلَّمُ:

مرحباً يا أصدقاءُ. . . يسرُّني أنْ ألتقيَ بكمُ اليومَ بعدَ أكثر من (٩٧٥) سنة من رحيلي عن هذه الدُّنيا.

لا شكَّ أنَّكمْ سمعتمْ بي وبإنجازاتي الكثيرة، وأنا أحبُّكمْ لأنَّكم مميَّزونَ، ووصلتمُ اليومَ إلى أعلى مستوىً من التقدُّمِ، فنحنُ في الماضي لم نكنْ نملكُ كلَّ ما لديكمُ الآنَ من آلاتٍ وإنجازاتٍ تسهِّلُ لكمُ العيشَ، وتساعدكمْ على الحياةِ بسهولةٍ أكبر من الماضي.

لقدِ اشتهرتُ كثيراً بلقبي (ابن سينا)، ويحبُّ الناسُ أنْ يلقِّبونني بـ «الشَّيخِ الرَّئيسِ».

ولدتُ قبلَ نحوِ ألفِ عامٍ، وتحديداً عام (٩٨٠)، وكانتْ وفاتي عام (١٠٣٦)، أي: كانَ عمري عندَ وفاتي (٥٦) سنة تقريباً.

وليستْ هذه الأرقامُ صحيحةً تماماً؛ لأنَّهُ في زمني لم يكنْ لدينا سجلاتٌ مثل السِّجلّاتِ التي لديكمُ اليومَ؛ لكنَّها تواريخ رجَّحها بعضُ العلماءِ.

ولدتُ في قريةٍ قديمةٍ تُدعَى (أفشنة)، وهي قريبةٌ من مدينةِ بخارَى من مدنِ أوزبكستان حالياً، من أبٍ من مدينةِ (بلخ)؛ التي تقعُ في أفغانستانَ حاليّاً، وتوفّيتُ في مدينةِ همدانَ؛ التي تقعُ في إيرانَ.

ولو أردتُ أنْ أخبرَكمْ عن تفاصيلِ حياتي لاحتجتُ إلى أوراقٍ كثيرةٍ؛ فقدْ كنتُ منذُ

صغري مهتمّاً مثلكم بالعلم، وكنتُ لا أضيِّعُ دقيقةً واحدةً دونَ أنْ أقرأَ أو أكتبَ، أو أحفظَ؛ حتى أني حفظتُ القرآنَ الكريمَ وعمري لا يتجاوزُ العشرَ سنينَ، وبرعتُ في تلكَ السنِّ الصغيرةِ بالنَّحْوِ (الإعرابِ) واللُّغةِ والشِّعرِ والأدبِ، وفي سنِّ الشَّبابِ أحببتُ الطِّبَّ حبّاً كثيراً، وأصبحتُ طبيباً ماهراً، ولم يكنْ عمري قدْ تجاوزَ السّادسةَ.

ورغمَ حياتي القصيرةِ؛ فقدْ كتبتُ أكثرَ من مئتي كتابٍ، وفي موضوعاتٍ علميَّةٍ كثيرةٍ، من أبرزِها الطبُّ والفلسفةُ، وكنتُ أوَّلَ مَن وضعَ كتاباً عنِ الطِّبِّ في العالم، ومن كتبي الشهيرةِ عبرَ السنينَ كلِّها كتابُ «الشفاء»، وكتابُ «القانون» في الطِّبّ.

وممّا ساعدني على دراستي أنَّ أبي كانَ محبّاً للعلم، وقدْ وجَّهني للتَّعلُّم على أيدي علماءَ كبارٍ في عصري، وكنتُ أحياناً لا أنامُ اللَّيلَ، وأواصلُ السَّهرَ والعملَ والبحثَ؛ حتى أتوصَّلَ إلى حلٍّ لمسألةٍ علميَّةٍ.

وعندما بلغتُ (١٨) من عمري، أصبحتُ طبيباً شهيراً جدّاً، وعندما مرضَ السُّلطانُ نوحُ بنُ منصورٍ الساماني ـ سلطانُ الدَّولة السّامانية التي كانتْ في تلكَ الأيّام ـ استدعاني على الفور، وتمكَّنتُ من علاجه بفضل الله، فأُعجبَ السُّلطانُ بي وبعلمي، وأمرَ بأنْ تكونَ مكتبتهُ الخاصَّةُ تحتَ تصرُّفي، ولم تكن الكتبُ في عصرنا متوفّرةً كثيراً، فكانت تلكَ الفترة من أجمل فترات حياتي وأكثرها أهميَّةً.

وبسبب حبّي للعلم، قرَّرتُ السَّفرَ بحثاً عن العلماء وطلباً للعلم، فغادرتُ مدينةَ بخارى، وذهبتُ إلى خوارزمَ، وبقيتُ فيها عشرَ سنواتٍ، ثمَّ تنقَّلتُ من بلدٍ إلى آخرَ؛ حتى وصلتُ إلى

همدانَ، وقضيتُ فيها تسعَ سنواتٍ، وعندما بلغتُ (٥٦) سنةً من عمري، جاءني الموتُ وتوفّيتُ هناكَ سعيداً راضياً عن أعمالي الكثيرة، ومساعدتي لكثيرٍ من النّاس:

وكنتُ أتمنّى فقطْ أنْ أعيشَ أكثرَ حتى أحقّقَ أكثرَ؛ لأني كنتُ أؤمن بأهمية العلم في الحياة، ومدى فائدته للنّاس، ومما يؤكّدُ ذلكَ أنَّ كثيراً ممّا كتبتهُ صارَ يُدرَّسُ في جامعات العالم، وتُرجمَ إلى لغاتٍ كثيرةٍ.

ولم يكن اهتمامي مقتصراً على الطّبّ؛ فقدْ كنتُ أحبُّ الشّعرَ وأكتبهُ، ولديَّ أشعارٌ كثيرةٌ، كما اشتهرتُ بالفكر والفلسفة، وكانتْ أبحاثي لا تمنعني من ممارسة هواياتي المحبَّبة، وقد درستُ الموسيقى أيضاً، وكتبتُ كتباً فيها، كما درستُ الرياضيات والعلومَ والفلكَ، وبرعتُ في كلّ ذلكَ.

وصدّقني يا عزيزي الصغير أني لم أكنْ أشعرُ بالملل أثناءَ القراءة أبداً، رغمَ أنَّ كتبَنا القديمةَ هي غير كتبكمُ الجميلة الصغيرة اليومَ، وكانتْ أقلامُنا غيرَ أقلامكمُ الخفيفة السَّهلة الكتابة، وكنتُ أحياناً أقرأُ كتاباً مرّاتٍ ومرّاتٍ لأفهمَهُ. وربما قرأتُ الكتابَ (٤٠) مرَّةً متتاليةً دونَ أنْ أشعرَ بالملل ولا للحظةٍ واحدةٍ.

وكنتُ إذا تحيَّرتُ في مسألةٍ ولم أجدْ حلاً لها، ذهبتُ إلى المسجد وصلّيتُ ودعوتُ اللهَ أن يهديَ قلبي إلى الحلّ.

وكنتُ في اللَّيل أُضيءُ السّراجَ، وكانَ عبارةً عن فتيلةٍ وزيتٍ، فلم يكنْ لدينا الكهرباءُ التي لديكم، والمصابيحُ القويَّة، بلْ كنتُ أضعُ السّراجَ قربَ الكتاب والأوراق، وأنشغلُ

بالقراءة والكتابة؛ فمهما غلبني النومُ أو شعرتُ بضعفٍ، عدلتُ إلى شرب قدحٍ من الشَّراب ريثَما تعودُ إليَّ قوَّتي، ثمَّ أرجعُ إلى القراءة.

ولم يكنْ يهمّني المالُ والثَّراءُ والمناصبُ، بلْ كانَ همّي العلمُ الذي يفيدُ النّاسَ، ومنذُ أنْ أصبحتُ طبيباً، فرَّغتُ نفسي من أجل معالجة المرضى الفقراء دونَ أجرٍ؛ حبّاً للخير، وشكراً لله على هذا العلم، وليسَ للتكسُّب.

ورغمَ أني لم أكنْ من أصلٍ عربيٍّ، فإني أحببتُ العربيَّةَ وبرعتُ فيها.

وأفخرُ أني كنتُ أوَّلَ من وصفَ التهابَ السَّحايا، وأظهرَ الفرقَ بين التهاب الحجاب الفاصل بين الرئتين والتهاب ذات الجنب، وأوَّلَ من اكتشفَ الدُّودةَ المستديرةَ، وأوَّلَ من اكتشفَ اليرقانَ، وأوَّلَ من تحدَّثَ وبشكلٍ دقيقٍ عن السَّكتة الدّماغيَّة.

ومن بين إنجازاتي اكتشافي لبعض الأدوية المنشّطة لحركة القلب، ولأنواع من الأدوية المنوّمة التي تُعطَى للمرضى قبلَ إجراء العمليّات الجراحيَّة.

وكنتُ أحدَ أوائل العلماء المسلمينَ الذين اهتمّوا بالعلاج النفسيّ، وبرصد أثر هذا العلاج على الآلام العصبيّة.

وفي علم الطَّبيعة، اكتشفتُ أنَّ الرُّؤيةَ أو الضوءَ سابقٌ على الصَّوت، كضوء البرق مثلاً يسبقُ صوتَ الرَّعد، فنحنُ نرى ومضَ برقه، ثمَّ نسمعُ صوتَهُ.

ومن أشهر كتبي في الطّبّ «القانون»؛ الذي أصبحَ أحدَ مراجع جامعات أوروبا الأساسية؛ حتى إنه درِّسَ في جامعتي «مونبليه» و«لوفان» إلى نهاية القرن السّابع عشر.

وكانَ هذا الكتابُ مرجعاً أساسياً يدرَّسُ في جامعتَي فيينا وفرانكفورت طوالَ القرن السّادس عشر.

ولم أكنْ فيَ يومٍ من الأيّام فاترَ الهمَّة في طلب العلم؛ لكنْ في نهاية حياتي أصابَ جسدي المرضُ، وأحسستُ بقرب الأجل، فتصدَّقتُ بما لديّ من مالٍ للفقراء، وأعتقتُ غلماني، وتفرَّغتُ للعبادة حتى وفاتي.

وغادرتُ الدُّنيا وأنا سعيدٌ جداً رغمَ الآلام التي أصابتني؛ لأني تركتُ لكم إنجازاتٍ عظيمةً في العلم والفكر والطّبّ والفلك والدَّواء والتَّربية، وكثير من العلوم، فرضيتُ عن نفسي.

فانظروا يا أصدقائي كيفَ أنني اليومَ، وبعدَ نحو ألف سنة من وفاتي ما زالَ النّاسُ يذكرونني ويكتبون عني، فمنَ النّادر أنْ تجدَ كتاباً عربيّاً أو أجنبيّاً يتكلَّمُ عن الطّبّ والفلسفة والتَّربية ولا يذكرني.

وهذا ما يسعدني كثيراً ويشعرني بأني قريبٌ منكم، وأنكم تحبّونني، فلكم جميعاً محبَّتي.

٨ ـ عامرٌ وجابرُ بنُ حيّانَ

كانَ عامرٌ يجلسُ في غرفته يشاهدُ برنامجاً علميّاً عن الكيمياء، سمعَ لأوَّل مرَّةٍ اسمَ العالمِ العربيِّ جابرَ بنَ حيّانَ. ووصفهُ البرنامجُ بأنهُ «شيخُ الكيميائيينَ العرب».

كانَ عامرٌ يعتقدُ مثل كثيرٍ من النّاس أنَّ الكيمياءَ كلَّها جاءتْ من الغرب المتقدّم في عصرنا، فاستغربَ، وحزنَ لأنهُ لا يعرفُ شيئاً عن هذا العالم الكبير.

قرَّرَ عامرٌ أنْ يدخلَ الإنترنت ليبحثَ عمّا أسماهُ البرنامجَ (مؤسِّسُ علمِ الكيمياءِ).

دخلَ عامرٌ مواقعَ كثيرةً، وراحَ يقرأُ الكثيرَ، فكانَ سعيداً باكتشافهِ، وقضى وقتاً ممتعاً يتنقَّلُ من معلومةٍ إلى معلومةٍ، فتأخَّرَ الوقتُ، وشعرَ بالنُّعاسِ، فنامَ، وصارتِ الأحلامُ تروادهُ، ورأى عامرٌ في منامهِ العالمَ العربيَّ جابرَ بنَ حيانَ وهو طفلٌ صغيرٌ يجلسُ في محلِّ والدهِ حيَّانَ المتخصِّصِ في صناعةِ الدَّواءِ، يراقبُ عملَ والدِهِ المفيدَ للنّاسِ.

لاحظَ عامرٌ السعادةَ التي كانتْ تغمرُ جابراً عندما يرى في عيونِ النَّاس تقديراً واحتراماً كبيرينِ لوالدهِ وعملهِ؛ فقدْ كانَ والدهُ مخلصاً في عملهِ، يعملُ بجدٍّ ومحبَّةٍ ووفاءٍ من أجلِ تخفيفِ آلامِ المرضى، وتأمينِ الدَّواءِ لهم؛ لأنهُ لم يكنْ همَّه ربحُ المالِ ولا الربحُ ولا التجارةُ.

وشاهدَ عامرٌ في منامهِ كيفَ نشأَ جابرٌ في اليمنِ في الطَّرفِ الجنوبيِّ الغربيِّ للجزيرةِ

العربيَّةِ، بعدَ أنْ هاجرَ والدهُ من الكوفةِ في العراقِ في أواخرِ عصرِ بني أميَّةَ، وأنّهُ كانَ محبّاً للعلمِ وعملِ الخير، وأكثر ما يسعدهُ أنْ يرى المرضى وقد أصبحوا أصحّاءَ.

وكانَ جابرٌ يقضي الكثيرَ من وقتهِ بصحبةِ أبيهِ، ويحرصُ على معرفةِ كلِّ الأدويةِ الموجودةِ في محلِّهِ، فنشأَ محبّاً للكيمياءِ؛ لارتباطِ علمِ الدَّواءِ بعلمِ الكيمياءِ.

بعدَ ذلكَ، انتقلَ جابرٌ مع أبيهِ إلى منطقةِ خراسانَ، وفيها تفرَّغَ للعلمِ، وتوفَّرَ له الكثيرُ الكثيرُ من أسبابِ العلمِ، مثل المدرِّسينَ والعلماءِ والكتبِ الوفيرةِ.

فرحَ عامرٌ وهو يرى جابراً ملتحقاً بحلقاتِ العلمِ، منتبهاً متيقِّظاً، يسجِّلُ على الورقِ كلَّ ما يفيدهُ من علومٍ؛ لكنَّ عامراً حزنَ لمّا توفِّيَ والد جابرٍ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ، وكانَ جابرٌ ما يزالُ صغيراً، فاضطرَّ للعودةِ إلى أعمامهِ في اليمنِ؛ لكنَّهُ مع ذلكَ لم يتوقفْ عنِ العلمِ، بلْ بحثَ عنِ المدرِّسينَ والعلماءِ، وتعلَّمَ على أيديهمُ اللُّغةَ العربيَّةَ وعلومَ الدِّينِ.

وبعدَ أنْ بلغَ سنَّ الشَّبابِ انتقلَ جابرٌ إلى بغدادَ عاصمةِ الدَّولةِ العبّاسيَّةِ في ذلكَ الزَّمانِ، ومنها انتقلَ إلى مدينةِ الكوفةِ في جنوبِ العراقِ، وأقامَ فيها واشتغلَ بالكيمياءِ، وكانَ أشهرَ المشتغلينَ فيها.

وأكثرُ شيءٍ أصابَ عامر بالعجْبِ هو أنَّ جابراً عاشَ في الكوفةِ حياةً غيرَ مستقرَّةٍ، لأنّهُ كانَ يرتحلُ في اللَّيلِ من مكانٍ إلى آخرَ، حتى ينجو من أعينِ المتطفِّلينَ الذينَ كانوا يزعجونَهُ باستمرارٍ في معمله بحثاً عنِ الذَّهبِ.

واكتشفَ عامرٌ في منامهِ أنَّ سببَ هذا التطفُّلِ يعودُ إلى أنَّ جابراً كانَ يعيشُ في فترةٍ زمنيَّةٍ شاعَ فيها الاعتقادُ بينَ النّاسِ، بلِ الكيميائيينَ أنفسِهمْ، بأنّهُ يمكنُ تحويلُ المعادنِ الرَّخيصةِ

مثلِ الحديدِ و النُّحاسِ إلى ذهبٍ أو فضَّةٍ، وذلك من خلالِ مادةٍ مجهولةِ الخواصِّ تُعرفُ باسمِ «الإكسير» أو «حجر الفلاسفة».

ولمّا كانَ جابرٌ أحدَ النّابهينَ في الكيمياءِ؛ فقدْ كانَ عددٌ كثيرٌ من النّاسِ يعتقدونَ أنَّ معملَ جابرٍ مليءٌ بالذَّهبِ، وكانتِ الكيمياءُ في عصرهِ تستندُ إلى أفكارٍ غيرِ صحيحةٍ؛ لكنَّ ابنَ جابرٍ لم يؤمنْ بكثيرٍ من الاعتقاداتِ الخرافيَّةِ، وتمكَّنَ من التَّمييزِ بينَ الحقيقةِ والخيالِ في الكيمياءِ.

ورأى عامرٌ كيفَ أنَّ جابراً ابتكرَ العديدَ من الأدواتِ والأفكارِ العلميَّة، كما توصَّل إلى كثيرٍ من الحقائقِ، من تطويرِ صناعةِ الفولاذِ، إلى الصِّباغةِ والدِّباغةِ وتقويم الزُّجاجِ، ومنعِ الصَّدَأِ، وكشفِ الغشِّ في الذَّهب. . . وغيرِ ذلكَ كثيراً كثيراً من الفوائدِ العلميَّةِ التي جعلتِ العالمَ كلَّهُ يقرُّ بفضلهِ وسبْقهِ؛ حتى استحقَّ لقبَ «شيخ الكيميائيين العرب».

وعندما استيقظَ عامرٌ في الصَّباحِ الباكرِ، وهو سعيدٌ جداً لأنّهُ رأى جابراً في منامهِ، قرَّرَ أنْ يكتبَ بحثاً صغيراً يوزِّعهُ على أصدقائهِ في المدرسةِ.

وذهبَ عامرٌ إلى مكتبةِ المدرسةِ، وبحثَ عن معلوماتٍ عنِ الكيمائيِّ العربيِّ الكبيرِ جابرِ بنِ حيّانَ، فاكتشفَ أنَّه آمنَ بأهميَّةِ إجراءِ التَّجاربِ؛ كسبيلٍ علميٍّ دقيقٍ للوقوفِ على الحقائقِ، بعدَ أنْ تخلَّى عنْ منهجِ التَّأمُّلِ غيرِ المفيدِ. ورأى أنَّ دراسةَ العلومِ الطَّبيعيَّةِ أساسُها التَّجربةُ، وعرفَ أنّهُ كانَ أوَّلَ مَن أدخلَ التَّجربةَ العلميَّةَ المخبريَّةَ في منهجِ البحثِ؛ وكانَ ينصحُ الطّالبَ بالقولِ:

«أوَّلُ واجبٍ عليكَ أنْ تعملَ وتجري التَّجاربَ؛ لأنَّ من لا يعملُ ويجري التجاربَ لا يصلُ إلى أدنى مراتِبِ الإتقانِ؛ فعليكَ بالتَّجربةِ لتصلَ إلى المعرفةِ».

ومع أهميَّةِ التَّجربةِ فإنّ جابراً كانَ يقولُ:

«التَّجربةُ وحدُها لا تكفي لتصنعَ عالماً، بل لا بدَّ من أن يسبقَها الفرضُ العلميُّ الذي يصنعهُ العالمُ، ثمَّ التَّجربة بعدئذٍ هي المحكُّ».

ويقول: «إيّاكَ أن تجرِّبَ أو تعملَ حتى تعلمَ، ويحقُّ أنْ تعرفَ البابَ من أوَّلهِ إلى آخرهِ بجميعِ تقنيَّتهِ وعللهِ، ثم تقصدُ لتجرِّبَ فيكون بالتَّجربةِ كمالُ العلمِ».

ثانياً

حكاياتُ الأساطيرِ

٩ ــ القصصُ التي لا تصدَّقُ بسهولةٍ

١٠ ــ قمَّةٌ شديدةُ الانحدارِ

١١ ــ الفتى الطَّيِّبُ

١٢ ــ الرَّجلُ الطَّيِّبُ والملكُ الشِّريرُ

١٣ ــ الطّائرُ الخرافيُّ العجيبُ

١٤ ــ الأميرُ اليتيمُ

٩ ـ القِصصُ التي لا تصدَّقُ بسهولةٍ

كثيرةٌ هيَ القصَص والحكاياتُ التي لَا يُمْكِنُ تصديقُها بِسهولةٍ؛ وحتى مَنْ يَرَاها حَقيقةً عَلى أرضِ الوَاقعِ يَظنُّ نفسَهُ يَحلمُ، وربما رأى الإنسانُ أحداثاً لا يخبرُ بها، وقد يخبرُ بأحداثٍ من نسجِ الإنسانِ نفسِه... وَمَع ذلك تبقَى القصَصُ المحكيَّةُ راسخةً في ذَاكرةِ النَّاسِ، يَرويها الكِبارُ للصِّغارِ، وتتناقلُها الأمَمُ أجيَالاً وَراءَ أجْيالٍ، وربَّما تكونُ معظمُ القصصِ أقربَ إلى الخيالِ منها إلى الواقعِ؛ لكنَّ التَّجاربَ التي نحياها كلَّ يومٍ تدهشُنا أحياناً بوقائعَ كانتْ بالأمسِ خيالاً.

ولطالما سمعَ النَّاسُ عن أمورٍ غريبةٍ، لا يمكنُ أنْ تخطرَ على بالِ أحدٍ، وعن أحداثٍ عجيبةٍ لا ينسجُها إلا فكرٌ واسعٌ، ونفسٌ غارقةٌ في الأحلامِ البعيدةِ.

وفي أحيانٍ عديدةٍ نسمعُ عن قصصٍ حدثتْ في التّاريخِ، وقدْ تظنُّ أصحابُها أسطورةً من الأساطيرِ، أو خلقاً من غيرِ البشرِ من غرابةِ الأحداثِ التي تصادفُهم؛ لكنَّ تلكَ القصصَ رغمَ كلّ ما تثيرهُ من استغرابٍ؛ فإنَّها تظلُّ مرتبطةً بالواقع، مثيرةً للجدال.

وهناكَ من يؤمنُ بأنَّ وراءَ الواقع شيئاً أبعدَ من الحقيقة، وأوسعَ من الخيال، وأنَّ وراءَ كلّ خيالٍ طرفاً من الواقع هي أشياء؛ لا تسقطُ مع المطر، ولا تنبعُ مع الماء، ولا تثمرُ مع الزَّهر، ولا تنبتُ مع العشب.

أشياء فوقَ العقل أو التوهُّم، وفوقَ الرُّؤى والأحلام، ومع ذلكَ يظلُّ النّاسُ يسعونَ جاهدينَ لاقتناص الأمل، والحياة من وراء الواقع. فما أضيقَ العيش لولا فسحةُ الأمل!

ومن الحكايات التي عاشتْ دهوراً وتناقلَها النّاسُ ولم تمحَ من صفحات الذّكريات، حكايةٌ حدثتْ في مكانٍ شاهقٍ، حيثُ الأفقُ حدودهُ، والنسيمُ وروده، والزنبقُ جنودهُ.

هناك؛ حيثُ يبدو القمرُ أكبرَ بكثيرٍ وأشدَّ لمعاناً مما يراهُ سائرُ البشر! سكنتْ قريةٌ صغيرةٌ قمَّةَ جبلٍ عالٍ، عاش فيها النّاسُ في سلامٍ وطمأنينةٍ وأمانٍ، في حضن الطَّبيعة الجميلة والهواء البارد المنعش، داخلَ سورٍ مرتفعٍ، تحيطُ بهمْ غاباتٌ تكسو التِّلالَ والجبالَ والوديانَ.

وفي ربوةٍ عاليةٍ من القرية ينتصبُ الأثرُ القديمُ، ويبدو بقايا لقصرٍ حَجَريٍّ متينٍ.

أهلُ القريةِ يتوارثونَ جيلاً بعدَ جيلٍ قصصاً كانَ مسرحُها أرجاءَ هذا القصر الجميل، ينسجونَ حولَهُ خيالاتٍ وقصصاً قريبةً من الأحلام، يتوارثونَ قصصاً، ويخترعونَ أخرى، فهم منذُ مئات السّنينَ يعيشونَ بعيداً عن أهل القرى وسائر البلاد، لا يخرجونَ من قريتهم ولا يزورُهم من خارجها أحدٌ، ليسَ عندهم أجملُ من هذا الأثر ليكونَ سميراً لهم ورفيقاً على مدى الأيّام والسّنينَ.

كانَ سَكّانُ القرية بالرُّغم من كلّ الوَداعَة التي ينعمونَ بها في محيط قريتهم؛ مِن طبيعةٍ سَاحرَةٍ خَلابةٍ، وَهدوءٍ تامٍّ لا يَقطعهُ سوى صَوتُ زقزقة الطُّيور أو حفيفُ أوراق وأغصَان الشَّجر، يخشونَ الخروجَ من قريتهمُ التي تحيطُ بها الجدرانُ العاليةُ، حمايةً لهم منَ الأخطار

الخارجيَّة، حتى أنَّهم عندما أقاموا هذه الجدرَ لم يجعلوا لها أبواباً، فبدت القريةُ وكأنها سجنٌ كبيرٌ.

فأهلُ القرية، ومنذُ زمانٍ بعيدٍ، يَخشونَ الحيوانات المفترسةَ والفتّاكةَ التي تملأُ الجبلَ الذي يسكنونَ قمَّتَهُ، ترهبهمْ فكرةُ «الوحوش المرعبة»، يعتقدونَ أنّها ستجتاحُهمْ لو أزالوا الجدرَ، أو ستفتكُ بهم في حال خروجهم خارج أسوار القرية.

وتحكي الجدَّاتُ للأحفاد في الأمْسِيَات، ومن حينٍ إلى آخر، قصصاً كثيرةً محزنةً، عن اختفاء عددٍ مِن أبناء القرية الأشدّاء؛ الذين تجرَّؤوا وغادروا القريةَ التي تشبهُ الحصنَ، وجَالوا في أمْكنةٍ قريبةٍ في جوار قريتهم للاستطلاع والمغَامرة.

لم يذهبوا إلى مَكانٍ بعيدٍ؛ لكنَّهُم لم يعودوا إلى القرية منذُ أنْ غادروها، لم يجرؤ أحدٌ بعدَ ذلكَ على الخروج للمغامرة، أو حتى للبحث عنهم.

النّاسُ في تلكَ القرية اقتنعوا مع مضيّ السّنينَ والأجيال بأنَّ العالمَ كلَّه هو عالمُهم وحدُهم فقطْ، فليسَ من أمكنةٍ خارجَ قريتهم يمكنُهم أنْ يقصدوها، ولا مِن طعَامٍ غير الطَّعامِ الذي يعرفونَهُ.

لا شيءَ غيرَ هذه الأسوار التي بناها أجدادُهم؛ لإبعاد خطر الحيوانات المفترسة، ومنها الأفاعي والثعابينُ؛ التي لا تقوى على تسلُّق جدران السّور المبنيَّة من صخورٍ ملساءَ شديدةِ الصَّلابة.

الخطرُ يَكمنُ وراءَ هذه الجدرانِ، والخيرُ كلُّه في ظلّ حمايتها لهم، أحلامُ الانطلاق

خلفَ تلكَ الجبالِ المحفوفةِ بالمخاطر تقلَّصتْ؛ حتى أضحى مجرَّدُ التَّفكير بذلكَ بدعةً غيرَ واردةٍ على الإطلاق، ولا يُستحسنُ مجرَّدُ التَّفكير فيها، ويعاقبُ عليها قانونُ القرية.

ذاكرةُ التّاريخ مستمدَّةٌ من آثار القرية، والجبالُ المحيطةُ بها تشهدُ لتاريخها، وكأنها بعلوها المتناهي فوقَ كلّ الجبال الرّاسية من حولها، تسطعُ كلّ يوم من أنجم اللَّيل حين يغفو القمرُ، وتبدأُ النسائمُ تتراقصُ بينَ التِّلالِ والوديان، تداعبُ أوراقَ الشَّجر.

تغنّي أغنياتها الشهيرةَ، تملأُ النَّفسَ في كلّ الفصول بريقاً متجدداً يوماً إثرَ يوم، وليلةً إثرَ ليلةٍ، تلكَ هي الطَّبيعةُ تتحدَّثُ عن نفسها؛ كأنها فرقةٌ موسيقيةٌ واحدةٌ، متناغمةٌ، متناسقةٌ، تشغلُ نفسَها بنفسها، دونَ تبجُّحٍ أو غلوٍّ أو عملقةٍ؛ لأنها هكذا في رملها وفضائها، في أعلاها وأسفلها، ترسمُ الحياةَ بكلّ صنوفها، بكلّ هدوئها وجبروتها.

القريةُ مُزدحمةٌ بناسها، تحبُّهم ويحبّونَها، لا يعرفون غيرَها، ولا يخرجونَ منها، اعتادوا على ذلك وتأقلموا، فصاروا جزءاً متأصّلاً منْ ترابِ الأرضِ، وَنباتها وَثمارها.

النَّاسُ فيها مشغولونَ بكثرة أعمالهم، فكلُّ يومٍ جديدٍ، يحاولونَ أنْ يجعلوا من هذه القرية التي يسكنونَ فيها أجملَ مكانٍ في العالمِ، رغمَ أنهم لا يعرفونَ من العالم غيرَ ما فِي داخلِ الأسوار العالية التي تحيطُ بهم.

أهلُ القريةِ يتحدَّثونَ عن سُلالاتٍ كثيرةٍ منَ الأفَاعي، مِن كلِّ الأحجَام وَالأشكال والألوان، تتلوَّى في كلِّ مكانٍ ترصدُ فرائسَها، يَرسُمونَ بَعْضَها عَلى سورِ القريةِ ليبيّنوا خطرها، بأحجامها الضخمة، وأشكالها الغريبة، وألوانها الفريدة.

بَعضُ المشاهد مَحفُورةٌ على الجَانبِ الدَّاخِليّ مِنَ السُّور أو الأشكال الموضوعة فوقَهُ،

مجسَّماتٌ تؤكّدُ ضرورةَ ألّا يتجاوزَ أحدٌ هذه الأسوارَ المنيعةَ، لكي لا يصيبهُ ما أصَابَ غيرَهُ من الذين قاموا بتخطّي هذه الحدود، مهما تمتَّعَ من شجاعةٍ في النفس، وقوَّةٍ في الجسد.

هذه الأفاعي هي عدوُّهمُ الأوَّلُ، كَانوا يَحذرونها أشدَّ الحَذر، وَيَخَافونَ مِنْهَا أشدَّ الخَوف؛ لِذا كَانوا يَحْتاطونَ مِنها ومنْ سمِّها، يَستخرجونَ السمَّ مِن بَعض الأفاعي التي يجدونها ميتةً قربَ أسوار قريتهم، يترقبَّونَ من فوق الجدار، ينتظرونَ أيَّاماً وأسابيعَ طويلةً حتى يسعفَهمُ الحظُّ بموت أفعى في عراكٍ أو في غيره قريباً من الجدار، فيرسلونَ عصا طويلةً مصنوعةً من عدَّة أغصانٍ رفيعةٍ مستقيمةٍ يربطونُ أطرافَ بعضها ببعضٍ بحبالٍ متينةٍ.

يلتقطون الأفعى الميتةَ بطرف هذه العصا المحدبة، يرفعونها إلى أعلى الجدار ليستخرجوا منها السمَّ، ثم يجعلوهُ طُعماً لأطفالهمُ الصّغار؛ حتى تتعوَّدَ دماؤهم عليه؛ فإذا تعرَّضوا للدغة أفعَى أوْ ثعبَانٍ فِي يومٍ من الأيام فَلا تكونُ اللَّدغةُ مُميتةً، غيرَ أنَّ هُناكَ قصَصاً كانتِ الجَدّاتُ ترويها عن كثيرٍ ممنْ تعرَّضُوا لَلَّدغ، وَلم يَصْمدوا أمامَ سمّ الأفاعي الفتّاك، ومع ذلكَ فليسَ لديهم أيُّ خيارٍ آخرَ.

١٠ ـ قِمَّةٌ شَدِيدةُ الانْحِدارِ

لَمْ تكنِ المَركباتُ القديمةُ التي تَجرُّها الخُيولُ تَصِلُ إلى القَريةِ البعيدةِ؛ لوجُودِهَا فوقَ قِمَّةِ جبلٍ شديدِ الانحدارِ، تحيطُ بها غاباتٌ تمتدُّ من سفحِ الجبلِ إلى جوارِ سورِها العالي.

كما أنَّه لَمْ يكنْ عندَ أهلِ القريةِ خيولٌ، ولا يعرفونَها، بلْ كانوا يسمعونَ قِصصاً عنْ مخلوقٍ خُرافيٍّ سريعِ العدْوِ، قويِّ البنيةِ، يمكنُهُ أنْ يحملَ النّاسَ ويطيرَ بهم.

يتحدَّثونَ عن طائرٍ عجيبٍ حملَ جدَّهمُ الأوَّلَ إلى هذا المكانِ بعدَ أنْ غضبَ عليه مَلكٌ من ملوكِ الزَّمانِ، وأبعدَهُ عن بلادِهِ إلى قمَّةِ هذا الجبلِ عقاباً له، حيثُ استقرَّ وعاشَ زمناً طويلاً، ومضتِ الأزمانُ حتى نسيَ كثيرٌ من النّاسِ المعاناةَ الكبيرةَ التي عاشها جدُّهمْ بسببِ ظلمِ الملكِ الشرِّيرِ وحكايةِ الطائرِ.

وصارتِ الأحداثُ مجرَّدَ قصَّةٍ من القصصِ، وبعدَ أنْ دارَ الزَّمانُ دَورتَهُ، أقبلَ بَعضُ النَّاسِ إلى هذه القمَّةِ وَسكنوهَا، ثمَّ توارثوا قصصاً أخرى عنِ القصرِ الذي بقيتْ بعضُ آثارِهِ صامدةً رغمَ السِّنين الطَّويلةِ.

عاشَ كثيرٌ من النّاسِ في جوارِ القصرِ، وكانَ أكثرُ طعامِهِمْ نباتاً، من خضرواتٍ يزرعونها، أو من ثمارٍ يجنونها من الأشجارِ التي كانت تملأُ المكانَ.

أمَّا شرابُهم، فهو إمَّا من ماءِ ثمارِ جوزِ الهندِ الطيِّبِ الطَّعمِ، وإمَّا منْ ماءِ نبعٍ باردٍ في الصَّيفِ، مثلَّجٍ في الشِّتاء.

وألذّ ما كانوا يأكلونَ؛ الطيورَ التي يصطادونها عندما تمرُّ الأسرابُ المهاجرةُ في سماءِ قريتِهمْ، وربما احتفظوا بما اصطادوهُ حيّاً؛ ليأكلوا بيضَهُ، أو ليربُّوهُ إذا كان صغيراً؛ حتى يكبُرَ وينموَ شحمُهُ، ويزدادَ لحمُهُ؛ فيأكلوهُ بعدَ شيِّهِ بنارٍ خفيفةٍ يوقدونها بحجرٍ يكثرُ في أرضِهمْ، يصدرُ شراراتِ نارٍ قويَّةٍ عندما يُضرَبُ بحجرٍ مثلِهِ.

أمَّا مَا لديهم من حيواناتٍ صَغيرةٍ منْ ماعزٍ وخرافٍ؛ فقدْ كانَ عددُها قليلاً، لا يأكلونَ لحمَها إلا عندما لا يجدونَ طعاماً غيرَهُ يأكلونَهُ؛ خشيةَ انقراضِها، لأنَّهم كانوا يشربونَ حليبَها، ويصنعونَ منه بعضَ الأطعمةِ اللَّذيذةِ.

أمَّا الدَّجاجُ فقدْ كانَ وافرَ العددِ؛ يأكلونَ لحمَهُ وبيضَهُ، ويصْنعونَ من ريشِهِ أشكالاً من الثِّيابِ وأدواتِ الزِّينةِ. وفي مواسمِ الشِّتاءِ، عندما تكسو الثلوجُ الناصعةُ البياض المرتفعاتِ والسهولَ والمنحدراتِ والوديانَ بثوبها الأبيضِ، تبدو الجبالُ مثلُ عروسٍ ليلةَ زفافِها، فتمتلئُ الأزقَّةُ والشَّوارعُ بالبياضِ والصَّقيعِ، ويصبحُ التَّنقُّلُ بينَ بيوتِ القريةِ المتقاربةِ أمراً عسيراً.

عندها يمكثُ النّاسُ أياماً ولياليَ طويلةً لا يخرجونَ من بيوتهمْ إلا عندَ الحاجةِ القصْوَى، ولا يَذهبونَ إلى ساحةِ القريةِ الكبيرةِ مثل عادتِهم مساءَ كلِّ ليلةٍ في غيرِ مواسمِ الصَّقيعِ، فتهدأُ القريةُ كلُّها، وتسْكنُ كلُّ تفاصيلِها، ويخيّمُ عليها الصَّمتُ والظَّلامُ؛ لا صوتَ فيها غير صوتِ الرِّيحِ، ولا حركةَ فيها غير حركةِ الثلوجِ المتساقطةِ من السَّماءِ أو المتهاويةِ من فوقِ التِّلالِ والمرتفعاتِ.

١١ ـ الفَتى الطَّيِّبُ

على قمَّةٍ جبليَّةٍ جميلةٍ بديعةٍ، نشأَ فتى طيّبٌ بينَ أقرانِه الفِتيان، فخور بطلعتِهِ البهيَّةِ وبنيتِهِ القويَّةِ، فلا يسبقهُ من شَبابِ القريةِ أحدٌ في القوَّةِ والمهارةِ وحسنِ الأدبِ.

ومن فرطِ حبِّهِ للقريةِ ولشوارعِها وأزقَّتِها؛ نادراً ما يفقدُهُ أحدٌ ليومٍ كاملٍ أو يومينِ على الأكثرِ، فالجميعُ يلتقونَ بهِ من حينٍ لآخرَ.

وأهلُ القريةِ جميعاً يحبُّونهُ لأدبهِ وحرصهِ على مساعدةِ الآخرينَ؛ يلّبي نداءَ المرأةِ العجوزِ، فيقضي حاجاتِها ويحضرُ لها طلبَها، يقطفُ ثمارَ أشجارِ بستانِها، ويكنسُ باحةَ بيتِها، يبادرُ إلى الشَّيخِ الكبيرِ وهو يسيرُ في طريقِهِ حاملاً بعضَ الأغصانِ اليابسةِ ليشعلَها في موقدِ دارِهِ، أو ليتدفَّأَ بها في موسمِ الشّتاءِ القارصِ، يزيلُ الأعشابَ الضارَّةَ من طرقاتِ النّاسِ ودروبِهم.

يَحملُ مصباحَ الزَّيتِ في اللَّيالي المظلمةِ، عندما يغيبُ القمرُ، ليسلكَ العابرونَ طرقَهم بسلامٍ نحو بيوتهم، وهم عائدونَ من عملِهم أو من زياراتِهم.

كانَ يَستشعرُ فَرَحَ المعاونةِ، والرضا بإدخالِ السُّرورِ والمسرّاتِ إلى قلوبِ الآخرينَ. فمَا أجملَ أن يكونَ الإنسانُ «خادماً»، يعملُ من أجلِ راحةِ من يعرفُ ومن لا يعرفُ.

كمْ سخيَّةٌ هي اليدُ التي تمسحُ دمعةَ المحزونينَ، والفمُ الذي يواسي جراحَ المكلومينَ!

ومَا أنبلَ تلكَ الأناملَ التي تنزعُ الأشواكَ حتى تُدمَى، فلا تدمي أقدامَ العابرينَ، وتزرعُ الوردَ لتزيِّنَ دروبَ المحبّينَ! وما من جمالٍ مثل قولِهم: «سيّدُ القومِ خادمُهم».

وَكانَ هذا الفتى اليافعُ يسمعُ وهو فِي حِراكِهِ الدّائمِ الدّائِبِ في عونِ النّاسِ؛ بَعضَ كبارِ السِّنِّ وهم يروونَ قصصاً عن جدِّهِ، ويقولونَ أنه كانَ طيّبَ القلبِ مثله، ويحكونَ قصَّةَ رجلٍ يخدمُ النّاسَ ويعيشُ بينهم بسلامٍ على الرَّبْوَةِ الخَضْرَاءِ العاليةِ؛ التي تتَوَهَّجُ تَحْتَ الشَّمْسِ.

يكادُ المتأمّلُ يُسْحَرُ بِمَرْأَى سَماءٍ تَحْتَضِنُ الرّبوةَ بِحُنُوٍّ وسَكِيْنَةٍ، وفِي اللَّيَالي يلمسُ نُجُوماً مُرْتَجِفَةً، تبدو من شرفاتِهِ دانيةً مثلَ ثِمَارِ شَجَرٍ، ويكادُ عابرٌ في عتْمَةِ دُروبٍ طويلةٍ لا يَحْتاجُ إلى ضَوْءِ قِنْدِيلٍ وَ شُعَاعِ سِرَاجٍ، حيثُ ينامُ القمرُ وتغفو العصَافيرُ بأمانٍ وسلامٍ دونَ خَوْفٍ مِنْ صَيَّادٍ غادر يَأتيها بَغْتَةً، أو طامعٍ جائرٍ.

كانتِ الأرانِبُ تسيرُ بِخُشوعٍ آمنٍ في جِوارِ الثَّعالبِ، وتَرْقُدُ الحِمْلانُ في سلامٍ قُرْبَ الضِّباعِ.

ومن هُناكَ، في أعلى سَنامِ الرَّبْوةِ كانَ بيتُ جدِّهِ الحَجَريُّ القديمُ، بسقفِهِ القَرْمِيْدِ، وجُدْرانِهِ الصّخْرِ، وجبينِهِ العالي، وهامَتِهِ المُرْتَفِعَةِ، وبمَنارَتِهِ التي تَخْرِقُ الفضاءَ، وتَرْمِي بِشِبَاكِها حيثُ تسكبُ أنواراً بِهَيْبَةِ شموخٍ، بلا اسْتِئْذَانٍ.

ومن هناك أيضاً، كانَ القمرُ الجميلُ ينثرُ بَهاءَهُ على الحَدائقِ والتِّلالِ وَالوِدْيانِ والمُروجِ، مُعْلِناً نَفْسَهُ حارِساً أميناً للوحةٍ فنيةٍ طَبِيعِيَّةٍ سَاحِرَةٍ مُبْدِعَةٍ صَافِيَةٍ.

١٢ ـ الرَّجلُ الطَّيّبُ والملكُ الشِّرّيرُ

يحكى أنَّ سَيِّداً صالحاً، طيّبَ القلبِ، عاليَ الهمَّةِ، قويَ الإرادةِ، كانَ يعيشُ في بلادٍ بعيدةٍ جداً، وكانَ يملكُ قصراً جميلاً من أجملِ قصورِ بلادِهِ؛ لكنَّ الملكَ الشِّرّيرَ كانَ يغارُ من هذا الرَّجلِ الطَّيِّبِ، وأرادَ الاسْتيلاءَ على قصرِهِ الجميلِ الذي يمتازُ بحجارتِهِ النّادرةِ، ومكانِهِ الفريدِ، على ربوةٍ حافلةٍ بأنواعٍ من الورودِ والرَّياحينِ، ولا يُمكنُ العثورُ على ما يتَّصفُ به من جَمالٍ في أنحاءِ مملكتِهِ.

كانَ الحقدُ والحسدُ يتحكَّمانِ بقلبِ الملكِ الشِّرّير؛ كيفَ يكونُ لرجلٍ في مملكتِهِ مهما علتْ مكانتُهُ مثل هذا القصرِ الذي يتميَّزُ به عن قصرِ الملكِ؟ وزادَ من نقمتِهِ عليهِ أنَّ الرَّجلَ كانَ محبوباً عندَ النّاسِ، مقرَّباً منهم، يساعدُ فقيرَهم، يلبّي حاجاتِهم، ويعينُ مرضاهم، ويواسي آلامَهم.

لم يتوقَّفِ الملكُ الشِّرّيرُ عندَ مجرَّدِ التَّهديدِ والوعيدِ، ولم يتخلَّ عن هدفِهِ المنشودِ، بلِ ازدادَ ولعُهُ بمطلبِهِ، واشتدَّ تعنُّتُهُ مع إصرارِ الرَّجلِ الطَّيِّبِ على التَّمسُّكِ بقصرِهِ، بالرُّغم منْ أنَّ عروضَ الملكِ فاقتِ الثَّمنَ الحقيقيَّ للقصرِ والأرضِ التي تحيطُ بهِ.

عرضَ الملكُ الشِّرّيرُ على الرَّجلِ الطَّيِّبِ شراءَ القصرِ، وأغراهُ بكثيرٍ من الياقوتِ والذَّهبِ والمرجانِ؛ فرفضَ، خيَّرَهُ بينَ الوجاهةِ والغنى والرياسةِ، أو كلّها معاً؛ فرفضَ.

لم يقبلْ كلَّ ما عرضَهُ عليهِ بالتَّرغيبِ تارةً، وبالتَّرهيبِ تارةً أخرى، لم يكنْ قصرهُ، ولم تكنْ أرضهُ مجالاً للمقايضةِ مقابلَ كلِّ ثرواتِ الأرضِ.

ظلَّ الرَّجلُ يعاني ظلمَ الحاكمِ وتضييقِهِ عليهِ وعلى عمّالهِ زمناً طويلاً؛ أملاً منه بأنْ يتوقَّفَ الحاكمُ عن غيِّهِ، ويقتنعَ بأنَّهُ لن يتركَ أرضَهُ، ولن يبيعَها له بأيِّ سعرٍ؛ لأنها بالنّسبةِ إليهِ لا قيمةَ ماليَّةَ لها، إلى أنْ قرَّرَ الحاكمُ تنفيذَ مأربِهِ.

وكانتْ ليلة من ليالي الشّتاءِ الباردةِ، شديدة الظَّلامِ، عاصفة الرّيحِ. اقتحمَ الجنودُ قصرَ الرَّجلِ وقبضوا عليهِ وكبَّلوهُ بالحديدِ.

قادوهُ إلى قاضي الملكِ مكبَّلَ اليدينِ والقدمَينِ، أبلغَهُ القاضي أنهُ حُكمَ عليهِ بالنَّفي؛ لأنه رفضَ تحقيقَ أمرِ الملكِ.

سألهُ أن يعطيَهُ فرصةً أخيرةً للتَّنازلِ عن قصرِهِ؛ لكنَّ الرَّجلَ رفضَ ذلكَ بكبرياءٍ، وقالَ للقاضي:

إذا أرادَ الملكُ قصري، فليأخذْهُ غصباً عني؛ لكنَّهُ لنْ يحصلَ على موافقتي مهما فعلَ بي.

وتنفيذاً لحكمِ القاضي الجائرِ في قرارٍ اتَّخذَهُ دونَ محاكمةٍ ولا قضيَّةٍ ولا تهمةٍ، وبناءً على أوامرِ الملكِ الظّالمِ؛ قامَ طائرٌ خرافيٌّ عجيبٌ ضخمٌ، يسكنُ عشّاً هائلَ الحجمِ، على شجرةٍ كثيفةِ الأغصانِ في حديقةِ قصرِ الملكِ، قامَ بحملِ الرَّجلِ على ظهرِهِ ومعه زوجتُهُ وأولادهُ الصّغارُ، وطارَ بهم إلى مكانٍ ناءٍ.

أمرَ الملكُ بعضَ عمّالِهِ من الجنِّ أن يبنوا للرَّجلِ بيتاً بسيطاً وصغيراً على قمَّةِ الجبلِ العالي، حيثُ نقلَهُ الطّائرُ العجيبُ.

وقالَ القاضي للرَّجلِ قبلَ أنْ يختفيَ منَ المكانِ:

عليكَ أنْ تسكنَ في بيتكَ الجديدِ؛ حتى تموتَ؛ لأنه مكانٌ بعيدٌ، ولن تستطيعَ الخروجَ منه والعودةَ إليه من جديدٍ.

وأخبرَهُ أيضاً: بيتُكَ الجديدُ لن يكونَ أبداً مثلَ قصرِكَ الحالي، بلْ سيكونُ صغيراً، وعليكَ أن تقتنعَ بهذا الحكمِ، وألّا تفكّرَ بالعودةِ، وإلّا سوفَ يُقضَى عليكَ.

فأذعنَ الرَّجلُ الطَّيِّب لهذا الظُّلمِ، وفضَّلَ النَّفيَ الجائرَ على العيشِ بجوارِ حاكمٍ ظالمٍ، كما أنه لم يكن يملكُ خياراً آخرَ.

بعدَ أنْ وصلَ الطَّائرُ الخرافيُّ العجيبُ، وبسرعةٍ كلمحِ البصرِ إلى مكانٍ لا يعرفهُ أحدٌ من البشرِ، شرعَ عمّالُ الملكِ الشِّرِّيرِ ببناءِ البيتِ الجديدِ.

وخلالَ أيامٍ قليلةٍ من العملِ المتواصلِ ليلاً ونهاراً أصبحَ البيتُ جاهزاً؛ لكنَّهُ في الحقيقةِ لم يكنْ بيتاً عادياً.

وعندما شاهدَهُ الرَّجلُ أصيبَ بالدَّهشةِ والسَّعادةِ، وكانتِ المفاجأةُ أنَّ العمّالَ لم يلتزموا بأوامرِ ملكِهمُ الشِّرِّيرِ، وقاموا ببناءِ قصرٍ جميلٍ رائعٍ، أجمل من قصرِهِ الذي استولى عليهِ الملكُ؛ غرفُهُ وقاعاتهُ كثيرةٌ وواسعةٌ، وأثاثهُ يشبهُ أساسَ قصرِهِ القديمِ.

كانوا يعرفونَ صاحبَ القصرِ ويحترمونَهُ، ويعرفونَ أنَّ الملكَ «ظلَمهُ» عندما استولى على قصرِهِ بالقوَّةِ، ونفاهُ إلى هذا المكانِ النائي.

وقفَ الرَّجلُ على شرفةٍ من شرفاتِ القصرِ، تأمَّلَ البساتينَ المُمْتَدَّةَ.

كانتِ البساتينُ تَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي البَصَرُ، المنظرُ كانَ رائعاً جميلاً يملأُ القلبَ والنَّفسَ بهجةً وحبوراً، على عكسِ ما كانَ يأملُ الملكُ.

تأمَّلَ الواقعَ بغصَّةٍ، كانَ يأملُ أن تتملَّكَه قوةٌ ما تتمتَّعُ بقوَّةٍ جاذبةٍ تجرُّهُ إلى حيثُ يجبُ أنْ يكونَ، لعلَّ ريحاً عاتيةً تأتي من بعيدٍ، تنزعهُ من مكانهِ، وتحملهُ إلى حيثُ كانَ، تلقيهِ في الأرضِ التي يحبُّ؛ لكنْ... هيهاتَ هيهاتَ أنْ تأتيَ ريح يُتمنّاها، وأن يتغيَّرَ واقعٌ لا يريدُ هو بنفسهِ أنْ يغيّرَهُ ويبدِّلَهُ.

فهلْ تتغيَّرُ الأحوالُ منْ غيرِ إرادةٍ، ويتحقَّقُ انتصارٌ من غيرِ قتالٍ؟

وكم منْ متأمِّلٍ ضاعتْ منه آمالٌ وتناهتْ عنهُ أحلامٌ، يظنُّ مخطئاً أنَّ الآمالَ ستأتيهِ عفواً، وأنَّ الأحلامَ ستتحقَّقُ دونَ أنْ يجهدَ فكراً أو يبذلَ عملاً.

هو يعلمُ أنَّهُ: ما نالَ غايتَهُ مَن عوَّل الآمالَ على ريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ، أو مَن طلبَ الماءَ في صحراءَ قاحلةٍ، أو من صخرةٍ صمّاءَ جامدةٍ.

إنَّ الرِّيحَ التي تمرُّ تمضي في طريقها بكبرياءٍ، لا تسألُ عن محبٍّ أو مبغضٍ، هي تحملُ العبيرَ وضدَّهُ، وتسيرُ بلا نهايةٍ، بلا حدودٍ أو هدفٍ، تتنقلُ من بلادٍ إلى أخرى دونَ كللٍ أو مللٍ، تمرُّ على أسطحِ بيوتِ الأغنياءِ كما تمرُّ على أسطحِ بيوتِ الفقراءِ.

سيّانَ عندَها ما بينَ زهرِ الرَّبيعِ أو شوكِهِ، هي تمضي وتدورُ حولَ الكرةِ الأرضيَّةِ، تقطعُ المسافاتِ دونَ انقطاعٍ، ولا تعبأُ بكلِّ مَن تصادفُهُ في طريقِها.

وإلى سفحِ الجبلِ وصلَ بعضُ أهلِ الباديةِ يحملونَ خيامَهمُ المتنقّلةَ. شاهدوا القصرَ

المستجدَّ على رأسِ القمَّةِ، فسارعوا إلى صعودِ المرتفعِ رغمَ صعوبةِ التَّسلُّقِ ووعورةِ المنحدرِ.

حملوا معهمْ بعضَ الماشيةِ والحيواناتِ الدّاجنةِ؛ وعندما بلغوا المكانَ وجدوا أرضاً طيّبةً، وماءً عذباً، راحوا يرجونَ الرَّجلَ الطيّبَ أنْ يقبلَ بأنْ يعملوا في الأرضِ مقابلَ أنْ يسمحَ لهم بالسَّكنِ الدّائمِ في هذا المكانِ الجميلِ؛ ظنّاً منهم أنَّ القمَّةَ والبساتينَ التي تحيطُ بالقصرِ هي ملكُهُ.

كانتِ الأرضُ في تلكَ الأيامِ حرَّةً منطلقةً، لا يملكُها أحدٌ، وهو أوَّلُ إنسانٍ يطأُ القمَّةَ ويسكنُ فيها، وبدأَ العُمَّالُ الجددُ يَعْمَلُونَ ليلاً ونهاراً دُوْنَ مَلَلٍ، يَزْرَعُونَ أنواعاً مِنْ أَشْهَى فَاكِهةٍ وخُضْرَاوَاتٍ، أَرْضُ الرَّبْوَةِ خَصْبَةٌ خَصْبَةٌ؛ لَا تَبْخَلُ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي أَحْشَائِها، ولَا تَحْتَاجُ سَماداً وَلَا جُهْداً كَبِيراً، الماءُ يَسِيلُ من حولها مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، والعشبُ الضارُّ لَا يَنْبتُ بِهَا.

ترَابُها نَظِيفٌ، فَاكِهتُهَا لَذيذةٌ، كُلُّ ما عَلَيْهَا يعْجزُ وَاصِفاً عَنْ وَصْفِهِ، وَسَاحِراً عَنْ سِحْرِهِ، وَفَنَّاناً عَنْ فَنِّهِ، وَشَاعراً عَنْ شِعرِهِ.

فِي الرَّبوةِ العاليةِ على قمَّةِ الجبلِ حَرَكَةٌ دَائِبَةٌ جَادّةٌ مُنْهَمِكَةٌ، وأَعْمَالٌ مُسْتَمِرَّةٌ لا تَتَوَقَّفُ، مِثْل خَلِيَّةِ نَحْلٍ أَو ثَكَنَةِ جَيْشٍ.

المالكُ الجديدُ هَادِئٌ رَزِينٌ، حَليمٌ وقورٌ رصينٌ، لَطِيفٌ فِي تَعَامُلِهِ، سَعِيدٌ مُبْتَسمٌ بَشُوشٌ، العُمَّالُ يُحِبُّونَهُ، والأَزْهَارُ والأَشْجَارُ والفَرَاشاتُ؛ حَتَّى حَيَوَانَاتِ الزَّرَائِبِ عِنْدَمَا تَشُمُّ رَائِحَتَهُ تُطْلِقُ أَصْوَاتاً تَدُلُّ عَلَى الرِّضى والسُّرور، وكُلُّ ما فِي القَصْرِ كان يُحِبُّ السيِّدَ الكَرِيمَ، فهُوَ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ، يُسَاويهم بِنَفْسِهِ، فِي كلِّ مشْربٍ وَمأكَلٍ وَمَلْبَسٍ؛ طَعَامُهمْ

طعامُهُ، ثِيَابُهُمْ ثِيَابُهُ، لو شَاهَدْتَهُ بِرِفْقَتِهِمْ ما فَرَّقْتَ بَيْنَهُم وَبَينَهُ، لَا يَبْخَلُ عَلَيهِمْ بِعطاءٍ، لَا يُهِينُهمْ، ولَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُون.

وعَلَى هَذِهِ الحالِ عَاشَ العمّالُ، واستقرّوا بعدما كانوا من البدوِ الرُّحَّلِ؛ ينتقلونَ من مكانٍ إلى آخرَ؛ بحثاً عن الماءِ والطَّعامِ، وانقضتِ الأيّامُ بِوِئامٍ وَسَلامٍ دُونَ أَنْ تُكَدِّرَ صَفْوَ حَيَاتِهِمْ شَائِبَةٌ ولا عِلَّةٌ.

ومَرَّتِ السُّنون وهم هَانِئونَ سُعداءُ، لَيْسَ لديهم مَا يُقْلِقُ مِنْ مُزْعِجَاتٍ، وأصبحَ الرَّجلُ الطَّيّب المطرودُ من بيتهِ ملكاً كبيراً من ملوكِ الزَّمانِ.

١٣ ـ الطّائرُ الخُرافيُّ العجيبُ

يُروَى حكاية رجلٍ كانَ سيِّداً في قومهِ، شغلُهُ الشّاغلُ تربيةُ الطُّيورِ الكبيرةِ، كانَ يسافرُ من بلادٍ إلى بلادٍ؛ بحثاً عن الطُّيورِ التي يهواها، ويأتي بها إلى بلادهِ، متنقّلاً على قدمَيه تارةً، وعلى الحمارِ تارةً أخرى، وعلى الجِمالِ تارةً ثالثةً.

أمَّا المَراكبُ الشّراعيَّةُ الصَّغيرةُ منها والكبيرةُ، فكانَ يركبُها إذا صادفَ بحراً أو نهراً، أي: كانَ يركبُ ما توفّرَ له من مركبٍ، غيرَ عابئٍ ببرٍّ أو بماءٍ.

في الصحراءِ يمشي، وفي الغاباتِ والبراري يمشي، إلى الوديانِ ينزلُ، وعلى الجبالِ يتسلَّقُ، وفي السُّهولِ يمضي، لا يعيقهُ في سَيرِهِ إنسٌ ولا جانٌّ.

قادتْهُ الرّحلاتُ إلى قمَّةِ الجبلِ، حيثُ كانَ القصرُ شامخاً بكبرياءٍ؛ لكنَّهُ كانَ غيرَ مأهولٍ في ذلكَ الزَّمانِ، وكانَ النّاسُ يعتقدونَ أنَّ القصرَ يسكنهُ وحشٌ كبيرٌ؛ لذا كانوا يبتعدونَ عن القصرِ ولا يقتربونَ منه، وكانوا في اللَّيلِ يسمعونَ أصواتاً غريبةً تنبعثُ من داخلِ القصرِ؛ ممّا كانَ يزيدُ خوفَهم ورعبَهم.

كانوا يشاهدونَ في اللَّيالي المقمرةِ شيئاً ضخماً يشبهُ طائرَ (العنقاءِ) الشَّهيرَ في الأساطيرِ، يخرجُ من القصرِ ويحومُ فوقَ الغابةِ ويملأُ الوديانَ والتِّلالَ زعيقاً؛ كأنهُ يبكي، ثمَّ يعودُ بعدَ أنْ يفرِّغَ ما بقلبهِ من صراخٍ، ويختفي في ظلامِ القصرِ.

وعندما وصلَ الرَّجلُ إلى هذا المكانِ، وعندما سمعَ بقصَّةِ هذا الطائرِ الخرافيِّ الضَّخمِ،

لم يقدرْ على منعِ نفسِهِ من محاولةِ الدُّخولِ إلى القصرِ لاكتشافِ حقيقةِ هذا الطائرِ، كان يمني النَّفسَ بأنَّه يقدرُ على أسرِ هذا الطائرِ الغريبِ، كما فعلَ مع كثيرٍ من الطُّيورِ في رحلاتِهِ الكثيرةِ حولَ العالمِ؛ ليضمَّهُ إلى مجموعاتِهِ المتعدّدةِ من طيورٍ حيَّةٍ أو طيورٍ محنَّطَةٍ.

وبعدَ أنِ اقتربَ صيّادُ الطُّيورِ الماهرُ من سورِ القصرِ، وكانَ النّاسُ مستغربين من جرأتِهِ؛ لأنهُ هالكٌ بلا شكٍّ باعتقادِهم، فتحَ الرَّجلُ بابَ السُّورِ الحديديِّ بصعوبةٍ، فانطلقَ في الأرجاءِ صوتُ صريرٍ قويٍّ بعدَ زمنٍ طويلٍ من ابتعادِ النّاسِ عنه، دخلَ الرَّجلُ حديقةَ القصرِ، واختفى عن الأنظارِ، وارتفعتِ الأصواتُ التي كانت تتردَّدُ من داخلِ القصرِ في هذه اللَّحظةِ، وبدت كأنها تتعاركُ مع بعضِها.

مرَّتْ ثوانٍ معدوداتٌ، ثمَّ سمعَ النّاسُ من بعيدٍ صيحةً هائلةً قذفتْ بالصَّيادِ لعشراتِ الأمتارِ خارجَ القصرِ، وسقطَ فوقَ كومةٍ من القشِّ، فأصيبَ برضوضٍ بسيطةٍ، ولولا كومةُ القشِّ لتكسَّرتْ عظامهُ فيما لو سقطَ على إحدى الصُّخورِ المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ.

لكنَّ ما حدثَ لم يثنِ الصيادُ المغامرُ عن تكرارِ المحاولةِ، فبعدَ أيّامٍ استعادَ عافيتَهُ فتوجَّهَ نحوَ القصرِ مرَّةً أخرى دونَ أنْ تمنعَهُ تجاربُهُ السّابقةُ، حملَ معه هذه المرَّة شبكةً كبيرةً، وكيساً ضخماً، مصمّماً على أن لا يعودَ، إلّا وقدِ انتصرَ على ذلكَ الطَّائرِ، ومضَى في طريقِهِ وكأنهُ ذاهبٌ إلى حربٍ ضروسٍ.

عندما اقتربَ لم يدخلْ من بابِ القصرِ الرَّئيسيِّ الذي دخلَ منه المرَّةَ السابقةَ، وتوجَّهَ إلى النّاحيةِ الخلفيَّةِ من القصرِ، وألقَى بحبلٍ طويلٍ في رأسِهِ حديدةٌ علقتْ في حافةِ إحدى الغرفِ في الدَّورِ الأوَّلِ. تسلَّقَ الرَّجلُ الحبلَ بمهارةٍ بالغةٍ، ثمَّ دخلَ الغرفةَ واختفَى.

وكانَ أهلُ القريةِ يتابعونَ ما يحدثُ بعدما تركوا بيوتَهم وحقولَهم وأشغالَهم؛ ليشاهدوا ما سيحدثُ، لم يسمعِ النّاسُ أصواتاً مرعبةً مثلَ المرَّةِ الماضيةِ، ولم يسمعوا صيحةً هائلةً، بلْ كانَ القصرُ هادئاً غيرَ عادتِهِ.

مضتْ دقائقُ طويلةٌ وكأنَّها ساعاتٌ، دونَ أنْ ينطلقَ صوتٌ واحدٌ، ولحظاتُ الانتظارِ تمرُّ بهدوءٍ مثل السُّلحفاةِ، وتشتدُّ بطئاً عندما يترقَّبُ الإنسانُ أمراً هاماً ينتظرُهُ بشغفٍ.

فجأةً؛ عادتِ الأصواتُ المرعبةُ تنبعثُ من داخلِ القصرِ مثلِ سابقِ عهدِها، وظنَّ النّاسُ أنَّ الطّائرَ قضى على الصَّيادِ، فحزنوا عليهِ كثيراً، وأثنوا على شجاعتهِ؛ لكنَّهُمْ في المقابلِ لم يكونوا موافقينَ على ما فعلَهُ، وذكروا أنهم نصحوهُ بعدَ الاقترابِ من القصرِ.

وفي الصَّباحِ التّالي؛ وكانَ صباحاً مشمساً جميلاً، وفيما كانَ النّاسُ يقصدونَ حقولَهم وأعمالَهم وهم يترحَّمونَ على الرَّجلِ الصَّيادِ معتقدينَ بوفاتِهِ، فوجئوا بظهورِ الصَّيادِ نفسِهِ، وكانَ يرتدي ثياباً قديمةً جداً؛ لكنَّها أنيقةٌ وثمينةٌ، أصابتهمُ الدَّهشةُ، لكنَّ الصَّيادَ هدَّأَ من روعِهم، وأخبرَهم أنهُ لم يمتْ ولم يصبْ بأيّ أذىً، غيرَ أنه اكتشفَ شيئاً عجيباً، وهو أنَّ ذلكَ الطائرَ الذي كانوا يخافونَ منه طائرٌ رائعٌ، لطيفٌ جداً؛ لكنَّهُ هو أيضاً يخافُ من النّاسِ، يعتقدُ أنهم سوفَ يؤذونَهُ؛ لذا فإنه يسكنُ القصرَ منذُ زمانٍ بعيدٍ، ويخشى الاقترابَ من النّاسِ خوفاً على نفسِهِ من الهلاكِ بعدَ أنْ رآهم يصطادونَ الكثيرَ من الطُّيورِ ليأكلوها.

قالَ الصَّيادُ: إنَّ الطّائرَ ليسَ بالحجمِ الكبيرِ كما تعتقدونَ، هو طائرٌ عاديٌّ، يشبهُ البطَّةَ السَّمينةَ، ويصيحُ باستمرارٍ؛ لكنَّ صوتَهُ ليسَ مخيفاً، بلِ المخيفُ هو الصَّدَى الذي ينبعثُ من القصرِ الكبيرِ الذي يجعلُ الصَّوتَ بهذهِ الضَّخامةِ.

وأضافَ: ولا يعني ذلكَ أنَّهُ ليسَ قويّاً بما فيه الكفاية ليقضيَ على مجموعةِ أشخاصٍ دفعة واحدة؛ لكنَّهُ مع كلِّ تلكَ القوةِ التي يملكُها، هو من أجملِ الطُّيورِ وأكثرِهم لطفاً ودلالاً.

والأجملُ من كلِّ ذلكَ أنهُ يحبُّ قريتَكم مثلكمْ تماماً، وكانَ عندما يخرجُ محلِّقاً يحضرُ لكمُ الكثيرَ من البذورِ لأنواعٍ كثيرةٍ من الأشجارِ والنَّباتاتِ والزُّهورِ، ثمَّ يرميها على التِّلالِ والوديانِ من حولِكم، ممّا وفَّرَ لكمُ الكثيرَ الكثيرَ من الأعنابِ والثِّمارِ المختلفةِ.

وقالَ: لقدْ أخبرَني بلغتهِ، وأنا أفهمُ لغةَ الطُّيورِ؛ أنه يحبُّكم؛ لكنَّهُ يخافُ أنْ تقتلوهُ كما تفعلونَ عادةً بالطُّيورِ لتأكلوها، وهو يريدُ منكم عهداً أنْ تحافظوا على الطُّيورِ، وسوفَ يساعدُكمْ بزراعةِ أرضِكم، وينثرُ لكمُ البذورَ الطَّيِّبةَ في دقائقَ، وهي تأخذُ منكم ساعاتٍ لكلِّ حقلٍ.

كما أنَّ لديهِ مجموعةً من الأصدقاءِ الطُّيورِ تعيشُ داخلَ القصرِ، لديها خبرةٌ طويلةٌ بالزّراعةِ، سوفَ تجعلُ من بساتينِكم جناتٍ عامرةً بالخيراتِ على مدارِ العامِ، لا في المواسمِ فقطْ.

فرحَ النّاسُ فرحاً عظيماً بما قالهُ الصَّيادُ، وتعاهدوا منذُ ذلكَ الحينِ مع الطَّائرِ الخرافيِّ العجيبِ على احترامِ عالمِ الطُّيورِ، وعدمِ اصطيادِها، فهي الطَّبيعةُ الجميلةُ التي تتعاونُ مع بعضِها، من مخلوقاتٍ خلقَها اللهُ تعالى لتستفيدَ من بعضِها بعضاً، فلا يسيءُ الواحدُ منها للآخرِ، ولا يعتدي؛ لأنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين، فيتعاملُ مع كلِّ شيءٍ من حولهِ بقدرٍ وبحسابٍ وبوعيٍ وإيمانٍ.

ومنذُ ذلكَ الوقتِ أصبح اَلنّاسُ أصدقاءَ مع الطّائرِ العجيبِ، كما أنَّ الصَّيادَ لم يأسرِ الطَّيرَ الجميلَ رغمَ حرصهِ على ذلكَ، بلْ تركهُ لأهميَّتهِ بالنّسبةِ لسكّانِ القريةِ، وكانَ يعينهم على زراعةِ الأرضِ ورعايتِها، كما كانَ يحذّرُهم من العواصفِ قبل وصولِها بعدَ أنْ يشاهدَها من بعيدٍ، وهو يحلِّقُ في الفضاءِ.

وظلَّ هذا الطائرُ ينعمُ بالحياةِ بينَ أناسٍ يحبُّهم ويحبونهُ زمناً طويلاً؛ حتى حانَ أجلُهُ، ودفِنَ في ناحيةٍ من نواحي القصرِ، ضاعتْ معالمُها مع مضيِّ العقودِ والقرونِ، ولم يبقَ من أثرٍ له سِوى هذهِ القصَّةِ الغريبَّةِ.

١٤ ـ الأميرُ اليتيمُ

من القِصصِ الغريبةِ أنه عاشَ في زمانٍ بعيدٍ أميرٌ يافعٌ مع جدِّه الملكِ. كانَ الملكُ يحجبُ حفيدَهُ الوحيدَ عن عامَّةِ النّاسِ، يخافُ عليهِ من كلِّ شيءٍ.

توفّيَ والداهُ وهو طفلٌ صغيرٌ، ونشأَ يتيماً وحيداً مثله، ولم يكنْ لجدِّهِ الملكِ ابنٌ أو حفيدٌ غيرُهُ؛ فقدْ كانَ له ولدٌ واحدٌ، وهو والدُ حفيدِهِ الوحيدِ، وقد توفّيَ ابنهُ مع زوجهِ وهما يقومانِ برحلةٍ جبليَّةٍ، حينَ وقعتْ مركبتُهما التي كانت تجرُّها خيولٌ من فوقِ أعالي الجبالِ وتوفّيا على الفورِ.

اهتمَّ به جدُّهُ ورعاهُ منذُ الصِّغرِ، وعاملَهُ بما يليقُ بوريثِ عرشٍ، وراحَ يعدُّهُ ويؤهِّلُهُ لاستلامِ المُلكِ من بعدِهِ، ويحضرُ له مدرِّسينَ كباراً يعلّمونَهُ كلَّ ما يجبُ أنْ يتعلَّمَهُ الملكُ من علومٍ ولغاتٍ، وأحضرَ له فرساناً أشداءَ يدرّبونَهُ على الحربِ والنّزالِ.

كانتْ جدَّةُ «يتيمَ» تحكي له هذه القصَّةَ حتى تخفّفَ عنه ما كانَ يشعرُ به من يتمٍ، وكانَ «يتيمُ» يحبُّ هذه القصَّةَ لما فيها من جرأةٍ وبطولةٍ وإقدامٍ.

وكانتِ الجدَّةُ تتابعُ قصَّتَها بالقولِ:

إنَّ الملكَ كانَ يخافُ على حفيدِهِ الصَّغيرِ من أنْ يتعرَّضَ لسوءٍ، فأمرَهُ بألّا يخرجَ من القصرِ دونَ إذنِهِ، وألّا يتحرَّكَ دونَ حراسةٍ مشدَّدةٍ.

لم يكنْ للأميرِ الشّابِّ أصدقاءُ، فكانَ يقضي يومَهُ في القصرِ، والحرسُ لا يتركونهُ لحظةً

واحدةً، وحتى مدرّسيهِ ومدرّبيهِ لا يتحدَّثونَ معه كلمةً واحدةً خارجَ حدودِ ما هم مكلَّفونَ به؛ لكنَّ الأميرَ الصغيرَ سئم مَن هذه الحياةِ؛ فقدْ أصبحَ شابّاً يافعاً، يحبُّ الحرّيَّةَ ويريدُ الخروجَ إلى النّاسِ، والتَّعرُّفَ إلى كثيرٍ من الأصدقاءِ.

طلبَ من جدِّهِ الملكِ ـ ومراراً ـ السَّماحَ له بالخروجِ والتَّنزه في أمكنةٍ قريبةٍ من القصرِ يرتادُها الرَّعيَّةُ، فلم يوافقِ الملكُ، ولم يقبلْ بالأمرِ؛ لكنَّ حفيدَهُ كانَ مصرّاً، وصارَ يرجوهُ، فرقَّ قلبُ جدِّهِ، ونهاهُ عن ذلكَ؛ لأنَّ أبناءَ الملوكِ يجبُ أنْ تكونَ نفوسُهم مليئةً بالعزَّةِ والكبرياءِ، ووافقَ على خروجِهِ بصحبةِ الحرسِ شرطَ العودةِ مسرعاً، وطلبَ من كبيرِ الحرسِ أنْ يعتنيَ بحفيدِهِ، ويحرسَهُ كملكٍ.

وهكذا خرجَ الأميرُ الصَّغيرُ لأوَّلِ مرَّةٍ بعيداً عنِ القصرِ، وكانَ برفقتهِ الأشدّاءُ من الحرسِ، يحيطونَ به بهيبةٍ وإجلالٍ.

سارَ الأميرُ الشّابُّ على قدمَيه حتى وصلَ إلى ساحةٍ قريبةٍ من القصرِ، مليئةٍ بالباعةِ والمحالِّ والتُّجّارِ والزَّبائنِ.

عندما رأى النّاسُ الأميرَ وحرسَهُ ابتعدوا عن طريقِهم، وفضَّلَ كثيرٌ منهم ترْكَ المكانِ؛ فوجدَ الأميرُ نفسَهُ وحيداً مع الحرسِ، وبعضِ الباعةِ والتُّجارِ الذينَ كانوا يجلسونَ داخلَ محلّاتِهم.

حزنَ الأميرُ الشّابُّ، فهو لا يستطيعُ التكلُّمَ حتى مع النّاسِ الذينَ ظلّوا في المكانِ مضطرّينَ؛ حرصاً على بضائِعِهم وأموالِهم.

شعرَ أنَّهمْ يخشونَ التحدُّثَ إليه، كما أنَّ الحرسَ يبعدونَ النّاسَ عن طريقهِ، وحتى الحرس أنفسهم ممنوعونَ من الكلامِ معه لغيرِ سببٍ ضروريٍّ، فقرَّرَ العودةَ إلى القصرِ فوراً .

رَوَى الأميرُ لجدِّهِ الملكِ ما حدثَ، وسألَهُ عن سببِ ابتعادِ النّاسِ عنه؛ فقالَ له الملكُ بهدوءٍ وثقةٍ:

لا سبيلَ لغيرِ ذلكَ يا بنيّ، فأنتَ من سيرثني، ويقودُ البلادَ من بعدي، هم يهابونكَ لأنَّكَ السَّيدُ المطاعُ، وأنا أخشَى عليكَ أنْ يصيبَكَ سوءٌ؛ لكنَّ الأميرَ الصَّغيرَ لم يسرَّهُ هذا الجوابُ، فهو يريدُ الاقترابَ من النّاسِ أكثرَ .

بعدَ أيّامٍ، طلبَ الأميرُ من جدِّهِ من جديدٍ السَّماحَ له بالخروجِ للتَّنزُّهِ مرَّةً أخرَى؛ بعدَ أنْ قرَّرَ القيامَ بخدعةٍ تقرّبهُ منَ النّاسِ.

قرَّرَ أنْ يلبسَ ثياباً بسيطةً لا توحي أبداً بأنّهُ أميرٌ من أمراءِ ذلكَ الزَّمانِ، بل هي ثيابٌ تجعلهُ يبدو وكأنَّهُ من فقراءِ الرَّعيَّةِ؛ لكنْ من أينَ يحصلُ على مثلِ هذهِ الثّيابِ؟

فكَّرَ بالأمرِ، ولمعتْ في رأسهِ فكرةٌ! الأمرُ بسيطٌ: يمكنُ الحصولُ على هذهِ الثّيابِ من داخلِ القصرِ نفسِه، وهي لصبيٍّ يافعٍ في مثلِ سنِّهِ، يعملُ مزارعاً في الحديقةِ.

عندما حضرَ الصبيُّ في موعدهِ الثّابتِ كلّ يومٍ؛ تحدَّثَ إليه الأميرُ خلسةً دونَ أنْ يراهُ أحدٌ، وأغراهُ ببعضِ النُّقودِ مقابلَ أنْ يعيرَهُ ثيابَهُ الرثَّةَ.

أعطاهُ الصبيُّ ثيابَهُ التي يأتي بها يوميّاً، وارتدَى ثيابَ العملِ التي توجدُ في حديقةِ القصرِ على أنْ يعيدَ إليهِ ثيابَهُ قبلَ انتهاءِ عملهِ ليعودَ إلى بيتهِ.

أخذَ الأميرُ ثيابَ الصبيِّ إلى غرفتهِ، وبدأَ يعدُّ للمرحلةِ الثَّانيةِ من الخطَّةِ. ارتدَى الأميرُ

الصَّغيرُ ثيابَ المزارعِ البسيطةَ، ووضعَ فوقَها عباءتَهُ الملكيَّةَ الفاخرةَ، وغطَّى رأسَهُ بعَمامتهِ المزركشةِ المرصَّعةِ بالأحجارِ الكريمةِ، ثمَّ خرجَ بصحبةِ الحرسِ مثل المرَّةِ الماضيةِ.

سارَ الأميرُ بهدوءٍ يتأمَّلُ واجهاتِ المحالِّ، تصرّفَ النّاسُ مثل المرَّةِ الماضيةِ دونَ أنْ يبديَ الأميرُ أيَّ استغرابٍ.

وقفَ أمامَ واجهةِ محلٍّ للملابسِ، وأمرَ الحرسَ بانتظارهِ؛ لأنَّهُ يريدُ أنْ يشتريَ منْ هذا المحلِّ بعضَ الأشياءِ، فأسرعَ الحرسُ وسبقوهُ إلى داخلِ المحلِّ للتَّأكُّدِ من عدمِ وجودِ أيّ خطرٍ، وعندما دخلَ كانَ صاحبُ المحلِّ مرتبكاً وخائفاً.

طلبَ الأميرُ من الحرسِ الخروجَ حتى ينتهيَ من الشّراءِ؛ لكنَّهُم لم يوافقوا على الأمرِ إلّا بعدَ إصرارٍ منه، وراحَ يدورُ في المحلِّ متفحّصاً البضائعَ المعروضةَ، وانتهزَ فرصةَ وقوفهِ في زاويةٍ لا يراهُ منها صاحبُ المحلّ، وأسرعَ بخلعِ العباءةِ والعمامةِ، فظهرَ بشكلٍ مختلفٍ تماماً.

وعندما رآهُ صاحبُ المحلِّ فوجئَ به، وطلبَ منه بصوتٍ هامسٍ الخروجَ فوراً. سأله عنِ السَّببِ، فقالَ بصوتٍ يرتجفُ: إنَّ الأميرَ الصَّغيرَ حفيدَ الملكِ موجودٌ في المحلِّ.

فقالَ له: وماذا في ذلكَ؟

قالَ: سيقتلونني أنا وأنتَ، ألا تفهمُ؟ ألستَ من هذه البلادِ! هيّا اخرجْ من هنا فوراً.

كانَ الأميرُ يفكّرُ بأنْ يخرجَ من المحلّ بثيابِ العاملِ؛ ليتخلَّصَ من الحرسِ، ويحتكَّ بالنّاسِ مباشرةً؛ لكنَّهُ بعدَ أنْ سمعَ هذا الكلامَ عدلَ عن خطَّتهِ، وأسرعَ بلبسِ العباءةِ، ووضعَ

العمامةَ، فأصيبَ الرَّجلُ بدهشةٍ، وانعقدَ لسانهُ، وأصابَهُ رعبٌ شديدٌ؛ لكنَّ الأميرَ هدَّأَ من رَوعهِ، وطلبَ منه عدمَ الخوفِ؛ لأنَّ الأمرَ لا يستدعي ذلكَ.

طلبَ الأميرُ من الرَّجلِ أن يشرحَ له سببَ هروبِ النّاسِ وخوفِهم منه؛ لكنَّ الرَّجلَ رفضَ أنْ يتكلَّمَ؛ فقدْ كانَ خائفاً.

الأميرُ الشَّابُ حدَّثهُ بتواضعٍ واحترامٍ حتى اطمأنَّ إليهِ الرجلُ، وأدركَ بفطنتهِ وخبرتهِ وبحكمِ تقدُّمهِ بالسِّنِّ أنَّ الأميرَ شابٌّ طيِّبٌ لطيفٌ، وليسَ مثل جدِّهِ قاسي القلبِ، كما يظنُّ سائرُ النّاسِ؛ لكنَّهُ لم يحدِّثْهُ عن قسوةِ جدِّهِ، وقالَ لهُ:

النّاسُ يخشونَ الحاكمَ لشدَّتهِ وحزمهِ، لكنَّهُ لم يكنْ كذلكَ قبلَ أنْ يموتَ ابنُهُ، فمنذُ ذلكَ الحينِ أصبحَ لا يسمحُ للرَّعيَّةِ بالاقترابِ منهُ، وصارَ منعزلاً عنِ النّاسِ، وحرسُهُ يعاملونَ النّاسَ بقسوةٍ شديدةٍ؛ لكنَّ الأميرَ الشّابَّ لم يقتنعْ بهذا الكلامِ، ولم يردْ إطالةَ الحديثِ كيلا يثيرَ ريبةَ الحرسِ، فاشترى بعضَ الثِّيابِ وأعطى للرَّجلِ صرَّةً مليئةً بالنُّقودِ، وقالَ له قبلَ أنْ يغادرَ:

سأعودُ إليكَ مرَّةً ثانيةً، وأرجو عندَها أنْ تحدِّثَني دونَ خوفٍ.

بعدَ أيّامٍ، قرَّرَ الأميرُ الخروجَ وحدهُ؛ لكنْ كيفَ السَّبيلُ إلى ذلكَ، والحرسُ يحيطونَ به طوالَ الوقتِ؟

فاهتدَى الأميرُ الصَّغيرُ إلى خدعةٍ جديدةٍ. انتظرَ حتى أنهَى عاملُ الحديقةِ الصبيُّ اليافعُ عملَهُ، وناداهُ بإشارةٍ من يدِهِ، فاقتربَ الصبيُّ وهو يرتجفُ من الخوفِ، قالَ له الأميرُ أنه يريدُ منه أمراً لو فعلَهُ سيكافئُهُ عليهِ مكافأةً كبيرةً.

كانتْ خطَّةُ الأميرِ أنْ يرتديَ الصبيُّ العاملُ ثيابَ الأميرِ، وأنْ يرتديَ الأميرُ ثيابَ العاملِ، ويدخلَ العاملُ غرفةَ الأميرِ، بينما يخرجُ الأميرُ لابساً ثيابَ الصَّبيِّ، فلا يشكُّ فيه أحدٌ.

خافَ الصبيُّ... ماذا لوِ اكتشفَ أحدُهم ذلكَ؟ فطمأنَهُ بأنَّهُ لا أحدَ يدخلُ غرفتَهُ، وطلبَ منه أن يبقَى فيها حتى يعودَ في الصّباحِ موعد دخولهِ القصر، فيستعيدُ كلٌّ منهما شخصيتَهُ.

ونجحتِ الخطَّةُ ببساطةٍ دونَ أنْ يلحظَ الحرسُ؛ فقدْ كانَ الصِّبيانُ يافعين في سِنٍّ واحدةٍ وبنيةٍ واحدةٍ. ومن يعتقدُ أنَّ الأميرَ سيتنكَّرُ في زيِّ صبيٍّ فلاحٍ؟

توجَّهَ الأميرُ فورَ خروجِهِ إلى ذلكَ المحلِّ الذي التقى فيهِ الرجلُ من قبلُ، وما أنْ رآهُ حتى كادَ يُغمَى عليهِ من الخوفِ.

وبعدَ أنْ هدأَ الرَّجلُ قليلاً، شعرَ بمدى اهتمامِ الصَّبيِّ بهِ وحرصهِ على سلامتهِ وصحَّتهِ، ولم يكنْ في محلِّهِ وقتها أحدٌ من الزَّبائنِ .

طلبَ الأميرُ من الرَّجلِ بعدَ أنِ استعادَ عافيتَهُ أنْ يخبرَهُ عن سرِّ خوفِ النّاسِ منه؛ لكنَّ الرَّجلَ رفضَ بإصرارٍ.

أدركَ الشَابُّ أنَّ هناكَ حاجزاً كبيراً يفصلُ بينَ الشَّعبِ والملكِ، وأنَّ عليهِ أنْ يكتشفَ السَّببَ.

قالَ للرَّجلِ: ستخبرني حقيقةَ الأمرِ، وإلا سوفَ أخبرُ جدِّي الملكَ أنكَ أسأتَ معاملتي، فصارَ الرَّجلُ يرجوهُ ألَّا يفعلَ ذلكَ، فقالَ: لنْ أخبرَهُ إذا أخبرتَني ما هو سببُ خوفِ النّاسِ من مولاي الملكِ.

عندَها قالَ الرَّجلُ: بشرطِ ألَّا تغضبَ مهما قلتُ، وسوفَ تصدِّقُني ولو كان كلامي غريباً بالنّسبةِ لك.

قالَ الأميرُ الصَّغيرُ: أعدُكَ بذلكَ.

فقالَ الرَّجلُ غاضباً؛ يريدُ أنْ يخرجَ منْ داخلِهِ ألماً سكنَ قلبَهُ فترةً طويلةً من الزَّمنِ:

إنَّ الملكَ رجلٌ ظالمٌ، يأخذُ أموالَ النّاسِ بالباطلِ دونَ حقٍّ، ومن يمتنعُ عن دفعِ نصفِ أرباحِهِ من التِّجارةِ لحرسِ الملكِ يُضربُ ويُسجنُ، والحرس يقومونَ بإهانتِنا وضربِنا، ولذلك فنحنُ ندفعُ على الفورِ.

ذهلَ الأميرُ الشّابُّ من ذلكَ؛ فجدُّهُ طيِّبُ القلبِ، ولا يمكنُ أنْ يفعلَ ذلك أبداً، وطلبَ من الرَّجلِ دليلاً على كلامِهِ وإلا سوفَ يعاقبهُ بنفسِهِ.

فقالَ له: ألمْ تقُل لي منذُ قليلٍ أنَّكَ لنْ تغضبَ مهما قلتُ، وأنَّكَ ستصدّقني، وقد عاهدتَني على ذلك؟

اعتذرَ الأميرُ الصَّغيرُ من الرَّجلِ، وقالَ له: ومع ذلكَ أريدُ دليلاً على ما تقولُ.

فقالَ الرَّجلُ: انتظرْ قليلاً يا سيِّدي، اليوم موعدُ دفعِ النُّقودِ، وفي هذا الوقتِ عادةً يأتي جنودُ الملكِ، وهمُ الآنَ يتنقلونَ بينَ التُّجارِ.

انتظرَ الأميرُ بعضَ الوقتِ، ثمَّ سمعَ حركةً وجلبةً على مدخلِ المحلِّ، فأسرعَ للاختباءِ خلفَ بعضِ البضائعِ، عندَها دخلتْ مجموعةٌ من جنودِ الملكِ، وطلبوا المالَ المعتادَ، فأسرعَ الرَّجلُ بدفعهِ فوراً دونَ أنْ يتكلَّمَ.

استشاطَ الأميرُ غضباً، ولم يستطِعْ تمالكَ نفسِهِ، فخرجَ من مخبئِهِ؛ زاجراً الجنودَ الذين فوجئوا بالشَّابِّ دونَ أنْ يعلموا مَن هو.

صارَ الأميرُ يصيحُ بهم: أرجِعوا النُّقودَ لصاحبِها، وإلا عاقبتُكم، فأنا الأميرُ أيُّها اللُّصوصُ.

وكانَ يظنُّ أنَّهمْ سيهابونَهُ؛ لأنَّهمْ يفعلونَ ذلكَ بغيرِ علمِ جدِّهِ الملكِ؛ لكنَّ الجنودَ انقضُّوا على الأميرِ بعدَ أن نظروا إلى هيئتِهِ وثيابِهِ الرثَّةِ، وقبضوا عليهِ ظنّاً منهمْ أنَّهُ مجردُ شابٍّ متهوِّرٍ، وعندما شاهدَ صاحبَ المحلِّ ما حدثَ، وقعَ على الأرضِ من شدَّةِ الرُّعبِ فاقداً وعيَهُ.

وفي هذهِ الأثناءِ أرادَ الملكُ التَّحدّثَ إلى حفيدِهِ لأمرٍ طارئٍ، ونادراً ما يحدثُ ذلك، فذهبَ إليهِ في غرفتِهِ، ولم يكن يذهب إلى غرفتِهِ كثيراً، فعثرَ على المزارعِ الصَّغيرِ في الغرفةِ مكانه، ودونَ تحقيقٍ طويلٍ أقرَّ المزارعُ بفعلتِهِ، واعترفَ للملكِ بكلِّ ما حدثَ، فأمرَ الملكُ حرّاسَهُ بسجنِ الفتى، وبالبحثِ عنِ الأمير، فأخبروهُ أنَّ هناكَ شابّاً يدَّعي أنَّهُ الأميرُ، قبضَ عليهِ بعضُ الجنودِ في السّوقِ، وهو الآنَ في السِّجنِ، وقد ظنّوا أنَّهُ مجنونٌ أو مدَّعٍ مخادعٌ؛ ينتحلُ صفةَ الأميرِ، وجدوهُ في السّوقِ يرتدي ثياباً رثَّةً باليةً، ولا يوحي منظرُهُ أبداً بأنَّهُ أميرٌ ولا حتى خادم أميرٍ، فأمرَ الملكُ بإحضارِهِ إليهِ فوراً.

وعندما مَثُل الأميرُ بينَ يدي جدِّهِ الملكِ استغربَ الملكُ أشدَّ الاستغرابِ من منظرِ الأميرِ عندما رآهُ أمامَهُ على هيئتِهِ الرثَّةِ، فطلبَ منه أن يذهبَ إلى غرفتِهِ، وأن ينظِّفَ نفسَهُ ويرتديَ

ثيابَ الأمراءِ، ثمَّ يعودَ ليشرحَ له ما حدثَ؛ لكنَّ الأميرَ أصرَّ على أن يخبرَ الملكَ عنِ الأمرِ قبلَ أيِّ شيءٍ آخرَ، ويشرحَ له سببَ هذه الحالِ.

وقال الأميرُ للملكِ أنَّهُ صدِمَ ممّا رآهُ بنفسِهِ، وأخبرَهُ أنَّهُ لا يقبلُ بأنْ يكونَ ولياً لعهدِهِ ومَلِكاً من بعدِهِ، وأنه سيتركُ القصرَ ليعيشَ كعامَّةِ النّاسِ.

الملكُ أصيبَ بحيرةٍ بالغةٍ، وأدركَ أنَّ الأمرَ خطيرٌ جداً، فأمرَهُ أنْ يخبرَهُ بما رآهُ فوراً. وبعدَ أنْ أخبرَهُ بما رآهُ وسمعَهُ بنفسِهِ؛ أقسمَ الملكُ أنَّهُ لا يعلمُ عن هذا الأمرِ شيئاً، وأنَّه سيعاقبُ الفاعلينَ، فاستدعَى الملكُ بعضَ حرسِهِ المقرَّبينَ، وسألَهمْ عنِ الأمرِ، وعلمَ أنَّ الأمرَ صحيحٌ، فسألهم لماذا لم يخبروهُ بذلكَ، فقالوا له أنهم في العادةِ من غيرِ المسموحِ لهم الحديث مع الملكِ، كما أنَّهم كانوا يخشونَ الكلامَ ظنّاً منهم أنَّهُ هو الذي يأمرُ الجنودَ بذلكَ، لأنَّ وزيرَهُ الأوَّلَ كانَ يعرفُ الأمرَ ويحجبُهم عنِ الملكِ .

غضبَ الملكُ غضباً شديداً بسببِ ما يقعُ في مملكتِهِ من ظلمٍ باسمِهِ، فاستدعَى وزيرَهُ وقائدَ الجنودِ فوراً، كما دَعا كبيرَ القضاةِ، وأمرَ بإجراءِ تحقيقٍ ومحاكمةٍ علنية عادلةٍ لمعاقبةِ المذنبينَ؛ بدءاً بوزيرِهِ الأوَّلِ وقائدِ الجنودِ.

ومنذُ ذلكَ اليومِ قرَّرَ الملكُ عزلَ الوزيرِ ومعاقبتَهُ، وأمرَ بأنْ تُزال كلّ الحواجزِ بينَهُ وبينَ الشَّعبِ، وأمرَ بفتحِ أبوابِ القصرِ أمامَ الرَّعيَّةِ؛ يدخلونَ إليهِ ويتحدَّثونَ معه كلَّما أرادوا، كما سمحَ للأميرِ الشّابِّ بأنْ يخرجَ ويلتقيَ بالنّاسِ في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ .

ثمَّ أعادَ الملكُ المالَ إلى أصحابِها بعدَ أنْ عاقبَ الوزيرَ وقائدَ الجنودِ اللذينَ كانا يأخذانِ مالَ التُّجّارِ عنوةً بغيرِ حقٍّ، وأمرَ بحبسِهما والحجزِ على كلِّ أموالِهما .

ومنذُ ذلكَ الوقتِ أصبحَ الأميرُ صديقاً لصاحبِ محلِّ الثِّيابِ، كما أصبحَ محبوباً لدى النّاسِ جميعاً.

وفي يومٍ، وفيما كان الأميرُ يجولُ في السُّوقِ، شاهدَ فتاةً مؤدَّبةً جدّاً، ما أنْ رآها حتى أُعجبَ بأخلاقِها وأدبِها، فسألَ عنْ والدِها، فعرفَ أنَّهُ صاحبُ المحلِّ نفسه.

ذهبَ الأميرُ إليهِ في محلِّهِ، وطلبَ منه أن يزوِّجَهُ ابنتَهُ، فوافقَ الرَّجلُ بشرطِ أنْ يوافقَ الملكُ على هذا الزَّواجِ؛ لأنَّه من عامَّةِ النّاسِ.

وبعدَ أنْ عرضَ الأميرُ على الملكِ الأمرَ وافقَ على الفورِ، رغم أنَّهُ من عادةِ الملوكِ ألّا يزوِّجوا أولادَهم إلّا ببناتِ ملوكٍ وأمراءَ، أو من بناتِ أسرةٍ مالكةٍ، فنقضَ الملكُ هذه القاعدةَ القديمةَ، وأعلنَ موافقَتَهُ على زواجِ حفيدِهِ بابنةِ صاحبِ المحلِ.

وكانَ الملكُ يريدُ أنْ يقيمَ عرساً ملكيّاً عظيماً، غيرَ أنَّ الأميرَ الصَّغيرَ طلبَ أن يكونَ عرساً شعبيّاً يجرى في إحدى السّاحاتِ الكبيرةِ، وأن يحضرَهُ الملكُ بنفسِهِ؛ لتلقِّي التَّهاني من الشَّعبِ مباشرةً، فوافقَ الملكُ على ذلكَ بكلِّ سعادةٍ ورضا، وكانَ يوماً بديعاً لم تشهدِ الممالكُ القديمةُ عرساً مثلَهُ.

ثالثاً

قصصُ الحيواناتِ

١٥ ــ البلبلُ الحزينُ والدّودةُ الحكيمةُ
١٦ ــ نملةٌ تركضُ قربَ النَّهرِ
١٧ ــ في بيتنا بقرةٌ تبيضُ
١٨ ــ الهدهدُ هدهودُ
١٩ ــ الفيلُ أبو خرطوم
٢٠ ــ الفراشةُ مشمشةُ والزَّهرةُ زوزو
٢١ ــ العصفورُ والغصنُ
٢٢ ــ البرغوثةُ الشَّقراءُ والقطَّةُ السَّوداءُ

١٥ ـ البلبلُ الحزينُ والدُّودةُ الحكيمةُ

في مساءِ يومٍ شتويٍّ باردٍ مطيرٍ، والسُّحبُ السَّوداءُ تملأُ السَّماءَ وتغطِّي قممَ الجبالِ، وتخفي قرصَ الشَّمسِ في أقصى الأفقِ لحظةَ الغروبِ، وقفَ البلبلُ الغرّيدُ على طرفِ غصنٍ في أعلى شجرةٍ من الأشجارِ الباسقةِ التي تملأُ الغابةَ. لم يكنِ البلبلُ مستعدّاً للغناءِ، كانَ يقفُ صامتاً، يتأمَّلُ مشهدَ العتمةِ والضَّوءِ الخافتِ لحظةَ رحيلِهِ.

فجأةً؛ خرجتْ من بينِ الأغصانِ المتشابكةِ المتصلِّبةِ من البردِ دودةٌ صغيرةٌ، يختلطُ لونُها بلونِ الشَّجرِ، وقد غسلَها ماءُ المطرِ، فهي نادراً ما تخرجُ من بيتِها في هذا الوقتِ؛ خوفاً من البردِ، وحرصاً على حياتِها.

قالتِ الدُّودَةُ للبلبلِ: منذُ أيّامٍ وأنا أراقبُكَ من بيتيَ القريبِ أيُّها البلبلُ الحزينُ! ما بكَ؟ لماذا تظلُّ صامتاً لا تغنّي في مثلِ هذا الوقتِ من كلِّ يومٍ؟! عندما أراكَ قربَ بيتي أفرحُ، وأنتظرُ سماعَ غنائِكَ العذبِ الجميلِ، أنتظرُ طويلاً، وتظلُّ صامتاً.

نظرَ البلبلُ إليها نظرةً دامعةً؛ لكنَّهُ لم يجبْ على سؤالها، تنهَّدَ تنهيدةً عميقةً؛ وكأنَّهُ يخرِجُ الهواءَ من أعماقِ قلبِهِ، ثمَّ التفتَ من جديدٍ حيثُ كانَ ينظرُ، وراحَ يتأمَّلُ الأفقَ البعيدَ بصمتٍ، حيث لا يرى غيرَ الظَّلامِ.

اقتربتْ منه الدُّودَةُ الخضراءُ وقالتْ: أنتَ تحزنُ يا صديقي في هذا الوقتِ من كلِّ مساءٍ لذهابِ يومٍ من أيّامِ عمرِكَ القصيرِ، أليسَ كذلكَ؟

هزَّ البلبلُ الحزينُ رأسَهُ، فهو يعرفُ قيمةَ الحياةِ، وقيمةَ الوقتِ؛ لأنَّ حياتَهُ قصيرةٌ، ولا يعيشُ طويلاً، ويعرفُ أهميَّةَ صوتِهِ عندَ سكّانِ الغابةِ من الطُّيورِ والحشراتِ والحيواناتِ البريَّةِ المختلفةِ، وحتى وحوش الغابةِ تحبُّ صوتَهُ الجميلَ.

اقتربتِ الدُّودَةُ الحكيمةُ أكثر، وكانتْ كبيرةً في السِّنِّ، وقالتْ بصوتِها النّاعمِ اللَّطيفِ: أرى أنَّ عليكَ أنْ تحزنَ أكثرَ يا ولدي لسببٍ آخرَ؛ لأنَّ حزنَكَ هذا يمنعُكُ عنِ الغناءِ ونشرِ البهجةِ في أنحاءِ الغابةِ بين سكّانِها وأشجارِها وأزهارِها.

نظرَ البلبلُ إليها من جديدٍ، لم يفهم ما الذي تقصدُ الدُّودَةُ أن تقولَهُ، وكانَ في عينيهِ علاماتُ استفهامٍ كبيرةٍ؛ لكنَّهُ ظلَّ صامتاً، كعادتِهِ في هذا الوقتِ من كلِّ يومٍ.

اقتربتِ الدُّودَةُ شيئاً قليلاً حتى أصبحتْ قريبةً من طرفِ الغصنِ الذي يقفُ عليهِ البلبلُ، فانحنى الغصنُ، واهتزَّ.

كادَ البلبلُ يفقدُ توازنَهُ ويقعُ؛ لكنَّهُ حرَّكَ جناحَيهِ، وأمسكَ بطرفِ الغصنِ بقوَّةٍ، وصارَ يتأرجحُ في الهواءِ، والدُّودَةُ تتأرجحُ معهُ، وقد بدتْ عليهِ علاماتُ الخوفِ؛ حتى ثبتَ الغصنُ من جديدٍ.

ضحكتِ الدُّودَةُ من أعماقِ قلبِها، ثمَّ قالتْ للبلبلِ وقدِ اصفرَّ وجهُهُ: أرأيتَ؟! أنتَ تحبُّ الحياةَ أيُّها البلبلُ حتى في هذا الوقتِ الذي يحزنُكَ.

فاسعدْ يا صديقي بكلِّ أوقاتِ الحياةِ، وأسعدِ الجميعَ من حولِك، ولا تستسلمْ للحزنِ، فغداً يومٌ جديدٌ.

التفتَ البلبلُ إليها، وقد هدأَ خوفُهُ وعادتِ الابتسامةُ تعلو وجهَهُ الجميلَ، وقالَ: صدقتِ

أيُّها الدُّودَةُ الحكيمةُ، أعدُكِ أني لن أتوقَّفَ عنِ الغناءِ بعدَ اليومِ، وسأظلُّ أغنّي وأغنّي إلى أنْ أعجزَ عنِ الغناءِ.

صاحتِ الدُّودَةُ بفرحٍ بصوتٍ عالٍ جداً غير معتادٍ من دودة مثلِها؛ حتى سمعَها كلُّ سكانِ الغابةِ، وقالت: شكراً أيُّها الجميلُ، شكراً، فكلُّنا في الغابةِ نحبُّكَ ونحبُّ صوتَكَ.

علمتْ حيواناتُ الغابةِ بهذا الحوارِ، فراحت تقصُّ على أبنائِها هذهِ الواقعةَ، وكانَ يرويها جيلٌ بعدَ جيلٍ؛ حتى أصبحتِ اليومَ قصَّةً من أشهرِ قصصِ الغاباتِ.

١٦ ـ نملةٌ تركضُ قربَ النَّهرِ

نملةٌ تمشي قربَ حافةِ نهرٍ، والنَّهرُ يعبرُ أمامَها منطلقاً مثلَ رصاصةٍ. احتارتِ النَّملةُ من النَّهرِ الذي يركضُ ولا يتعبُ من الركضِ، وتمنَّتْ لو كانَ هذا النَّهرُ عسلاً لذيذاً حتى يأكلَ منه مجتمعُ النَّملِ الذي يستوطنُ الغابةَ من قرونٍ.

تساءلتِ النَّملةُ: لماذا لم يكنْ هذا النَّهرُ الجارفُ عسلاً؟ ألنْ تكونَ حياتُنا ـ نحنُ معشرَ النَّملِ ـ ألذَّ وأجملَ بدلاً من التَّعبِ الكثيرِ طوالَ اليومِ بحثاً عن طعامٍ، والتعرُّض للخطرِ عندَ التنقُّلِ باستمرارٍ من عدوِّنا الخطيرِ آكلِ النَّملِ؟

شعرتِ النَّملةُ أنَّ شيئاً ما في داخلِها ينقبضُ. كانَ إحساسُ قلبِها الصَّغيرِ القريبِ من رأسِها يتحرَّقُ على شيءٍ لا يمكنُ أن يحدُثَ.

عادت تقولُ: إلى أين يا ترى يذهبُ هذا النَّهرُ الكبيرُ؟ لم يذكرْ لنا أجدادُنا النَّمل في قصصِهمُ التي نتوارثُها جيلاً بعدَ جيلٍ عن مصيرِ النَّهرِ، كما أنَّهم لم يقولوا لنا من أين يأتي النَّهرُ، وما هي النَّبتةُ العملاقةُ التي يعصرُ منها الماءَ كما نعصرُ طعامَنا ونمتصُّهُ من كثيرٍ من الأطعمةِ.

ضحكتِ النَّملةُ من تفكيرِها وقالتْ: لستُ متأكّدةً ممّا أقولُ؛ لكني أعرفُ أنَّ هنالِك ماءً يسقطُ أيضاً من السَّماءِ، ويأتي من مكانٍ مرتفعٍ لا أرى فيه نبتاً ولا شجراً!

أحسَّتِ النَّملةُ بسذاجتِها عندما حملتِ الرّيحُ إليها نقطةَ ماءٍ باردةً ارتطمتْ بصخرةٍ وسطَ النَّهرِ، فارتفعتْ نحوَ الضِّفةِ.

رشفتِ النَّملةُ نقطةَ الماءِ الباردةَ بلذَّةٍ بالغةٍ. كانتْ أطيبَ عندها من العسلِ، ثمَّ عادت تبحثُ عن رزقِها بكثيرٍ من النَّشاطِ، وكانت تركضُ مثلَ النَّهرِ.

١٧ ـ في بيتِنا بقرةٌ تبيضُ

في بيتِنا القرويِّ القديمِ كانَ عندَنا بقرةٌ ضخمةٌ جداً، لونُها يميلُ إلى الأسودِ الدّاكنِ مع بعضِ البياضِ، وكانت تقضي معظمَ النَّهارِ في غرفةٍ واسعةٍ قربَ البيتِ، حيثُ يأتيها طعامُها وشرابُها.

وكنتُ أرى أمّي تخرجُ لنا كلَّ يومٍ سلَّةً من البيضِ من غرفةِ البقرةِ إضافةً إلى دلو من الحليبِ الأبيضِ النقي.

وكانتْ أمي تقلي لنا أنا وأخوتي بضعَ بيضاتٍ، وتسخِّنُ لنا الحليبَ اللَّذيذَ.

وبعدَ أن نتناولَ طعامَ الفطورِ؛ تضعُ أمي ما تبقَّى من البيضِ في سلَّةٍ صغيرةٍ، وتذهبُ بها مع دلوِ الحليبِ إلى الدُّكّانِ الذي يملكُهُ أبي حيثُ يبيعُ البيضَ الطازجَ والحليبَ اللذيذَ مع بعضِ الأشياءِ البسيطةِ.

وفي كلِّ يومٍ كانتْ هذهِ الحادثةُ تتكرّرُ؛ حتى ظننتُ أنَّ البقرةَ التي لدينا في الغرفةِ الكبيرةِ الواسعةِ القريبةِ من البيتِ تبيضُ.

لم أكنْ أعرفُ أنَّ هناكَ غرفةً أخرى ملحقةً بالغرفةِ التي تسكنُها البقرةُ، ويوجدُ فيها مجموعةٌ من الدَّجاجِ البلديِّ الملوَّنِ الجميلِ، وكانَ لهذهِ الغرفةِ بابٌ ثانٍ يطلُّ على حديقةٍ صغيرةٍ، تتجمَّعُ فيها الدَّجاجاتُ، حيثُ تأكلُ وتلهو وتبيضُ.

بقيتُ سني طفولتي الأولى وأنا أفكّرُ: كيفَ يمكنُ لهذهِ البقرةِ الضخمةِ والتي يبلغ

حجمُها أضعافَ حجمي بأكثر من عشرِ مراتٍ، كيف يمكنُ لها أن تبيضَ بيضةً صغيرةً بهذا الحجمِ!

كنتُ أقولُ لنفسي: إن بيضَ هذهِ البقرةِ الضخمةِ يجبُ أنْ يكونَ بحجمي أنا على الأقلِّ.

وفي يوم زفَّتْ لنا أمي بشرى جميلةً؛ قالتْ لنا ونحنُ على مائدةِ الفطورِ:

بشرى لكم يا أولادُ! بقرتُنا حاملٌ، وبعدَ أسابيعَ قليلةٍ سيكونُ لدينا بقرةٌ صغيرةٌ جديدةٌ.

فرحتُ كثيراً بهذا الخبرِ، وظننتُ أنَّ البقرةَ الجديدةَ ستأتي من بيضةٍ تبيضُها البقرةُ الضَّخمةُ؛ لأني كنتُ أعرفُ أنَّ الدَّجاجةَ هي أيضاً تبيضُ، وبيضُها يأتي منه الكتاكيتُ الصّغارُ.

انتظرتُ كثيراً اليومَ الذي تأتي فيه أمي لتقولَ لنا:

مبروكٌ لكم يا أطفالي! صارَ عندَنا كتكوتٌ، وأنا أقصدُ بقرةً صغيرةً.

وفي يومٍ سمعتُ في اللَّيلِ حركةً غيرَ طبيعيةٍ في غرفةِ البقرةِ، وفي الصَّباحِ دخلتُ مع أمّي غرفةَ البقرةِ لأشاهدَ المولودَ الجديدَ، وعندَما رأيتُهُ دهشتُ من حجمِهِ، فقلتُ في نفسي: لا شكَّ أنَّ البقرةَ باضتْ بيضةً كبيرةً.

وعندَما كبرتُ قليلاً ضحكتُ على نفسِي كثيراً بعدَ اكتشافي الخطيرِ الذي عرفتُ فيه أنَّ البقرةَ لا تبيضُ.

١٨ ـ الهذهذ هدهودُ

الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ يُحبُّ الحَيَاةَ، يَعيشُ في سَلامٍ وهدوءٍ وَأَمَانٍ.

اسْمُهُ هَدْهُودُ، لطيفٌ ومحبوبٌ، ريشُهُ حَرِيْرٌ، شَكْلُهُ بديعٌ، صَوْتُهُ جَمِيْلٌ.

حُدودُهُ السَّماءُ، يَطيرُ مِنْ مَكانٍ إلى آخرَ بِرَشَاقةٍ وَعُنْفُوَان.

يَبْحَثُ عَنْ رِزْقِهِ بِنَشاطٍ بالغٍ وَحُبُوْرٍ، يبذلُ جهدَهُ بِجدٍّ وإصْرارٍ.

عَاشَ الْهُدْهُدُ هَدْهُودُ سعيداً يَلهُو ويَلعَبُ، يَقضي الوَقتَ بِعَمَلٍ نَافِعٍ، فلا يَشْعُرُ بالإرهَاقِ، وَلا بالتَّعَبِ.

فَوْقَ الشَّجَرِ يَشْدُو وَيَطْرَبُ، يُسْمِعُ الطَّبيعةَ أجْمَلَ الألحَانِ.

صَوْتُ الْهُدْهُدِ (هَدْهَدَةٌ) خفيفةٌ، عندما تَسْمَعُهَا الْحيواناتُ يَغْمرُهَا الفَرَحُ، ثم يذهبُ عِنْدَ النَّبْعِ، مَاءً يشربُ.

غنَّى الْهُدْهُدُ، طارَ الْهُدْهُدُ، كلُّ الأرْضِ لَهُ مَلْعَبٌ.

الْهُدْهدُ الصَّغِيْرُ يَعِيْشُ فِي مَوْطِنٍ بَدِيعٍ، يَمْتَدُّ إلَى السَّمَاءِ.

سِرَاجُهُ قَمَرٌ، رِيشهُ ضياءٌ، شعاره: عملٌ وخيرٌ وعطاءٌ.

ربَّتْهُ أمُّهُ بِحُبٍّ وَعَطْفٍ وَحَنَانٍ.

أطْعمتْهُ أَطايبَ الطَّعَام، مِنْ كلِّ الأشْكالِ وَالألوَانِ.

وأبُوهُ لا يَبتعدُ عنْ بيتِهمُ الجَميلِ، يَحميهِ وَيَرعاهُ، يُحْضِرُ لَهُ الألعابَ الجَميلةَ المُسَلِّيةَ، ويأخُذُهُ رحلاتٍ مُمتعةً مفيدةً.

فكانتْ حَيَاتُه سَلاماً وَأمَاناً، وَفَرَحاً وَسُرُوْراً.

الْهُدْهُدُ الصَّغيرُ يُحِبُّ السَّفَرَ.

يُحِبُّ أنْ يَطيرَ بِلا قيودٍ، بلا حدودٍ، بلا جُدُرٍ.

يُحَلِّقُ في الآفَاقِ، يُرَاقِصُ النَّسماتِ، يعانقُ الفضاءَ، مِنَ الْعُلا الرَّحْبِ يتأمَّلُ الصُّوَرَ.

يراقبُ الغيومَ والجِبَالَ والرِّيَاضَ، وَكلَّ مَا في الأرْضِ مِنْ جَمَالٍ وَبَهَاءٍ وَضِيَاءٍ.

الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ يُحِبُّ البَحْرَ، والنَّهْرَ والمَطَرَ، والعُشْبَ والشَّجَرَ.

الْهُدْهُدُ الصَّغيرُ طائِرٌ مُطِيْعٌ، يُحِبُّ أمَّهُ وَأَبَاهُ، يَسْمَعُ كَلامَهُمَا فَلا يُغْضِبُهُمَا.

يَطيرُ فِي الصَّبَاحِ وَقَبْلَ الْغُرُوْبِ، يَتَأمَّلُ المَكَانَ، يَتَأَمَّلُ الزَّمَانَ.

وفِي اللَّيْلِ أَيْضاً تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، يُحِبُّ أَنْ يَطِيْرَ، وَيُحَلِّقَ فِي الفَضَاءِ، يُطِيْلَ التأمُّلَ والتفكُّرَ فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ.

طَارَ الْهُدْهُدُ يَوْمَاً نَحْوَ الْوَادِي، راحَ يغني بصوتٍ شادٍ.

سَمِعَ منادٍ، كانَ يُنادِي: هُدْهُدُ، هُدْهُدُ، يا هَدْهُوْدُ!

صَاحَ الهُدْهُدُ: مَنْ ذا ينَادِي؟

قال الصَّوتُ: أنا هنا، أنا هنا، أَلا تَرَانِي؟

نَظَرَ الْهُدْهُدُ خَلْفَه وَأمَامَهُ: مِنْ أيْنَ أتَى هَذَا الصَّوْتُ؟ ومَنْ نَادَانِي؟

بَحَثَ الْهُدْهُدُ حَوَالَيْهِ، صارَ يُفَكِّرُ بقولِ أَبِيْهِ: حَاذِرْ! حَاذِرْ! ـ يَا وَلَدِي ـ أنْ تَدْنُوَ مِنْ شَيْءٍ

لا تَعْلَمُ مَاضِيْهِ، قَدْ يَكُوْنُ شِرَاكاً، أو فَخّاً، مَنْ يَدْري ما فيه؟ الْحَذَرَ. . الْحَذَرَ ـ يا ولدي ـ مِنْ صِفَاتِ الذَّكِيِّ النَّبِيْهِ.

يُثَبِّتُ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ فِي الْهَوَاءِ، كَأَنَّهُ نِسْرٌ، مَلِكُ الْفَضَاءِ، حَرَّكَ جَنَاحَيْهِ، تَأَرْجَحَ مُتَأَهِّباً بِحَذَرٍ، مُتَرَقِّباً لِمُواجَهَةِ أيِّ خَطَرٍ، صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِه: أَيْنَ أَنْتَ يَا صَاحِبَ الصَّوْتِ؟ أَظْهِرْ نَفْسَكَ حَتَّى أَرَاكَ.

لا تَخْشَ الظُّهُورَ أَمَامِي يَا صَاحِبَ الصَّوْتِ، أَقْبِلْ، عَلَيْكَ الأَمَان.

وَمِنْ بَعِيْدٍ جَاءَ الصَّوْتُ مُخْتَنِقاً، مُتَقَطِّعاً.

أَنَا هُنَا، أَنَا هُنَا، انْظُرْ نَحْوِيْ، أَلا تَرَانِي، أَنَا الزَّهْرُ الأَصْفَرُ.

جَالَ الهُدْهُدُ ببصرِهِ، تَحْتَ الشَّجَرِ، قُرْبَ المَاءِ، بَيْنَ العُشْبِ، نَظَرَ الهُدْهُدُ فَلَمْ يَرَ سِوَى زَهْرٍ ذَابِلٍ.

لَيْسَ فِي وَجْهِهِ الحَيَاةُ التي يَعْرِفُهَا.

اِقْتَرَبَ الْهُدْهُدُ أَكْثَرَ، ثُمَّ سَأَلَ: مَا بِكَ أَيُّها الزَّهْرُ حَزِيْناً؟ أَعْرِفُ أَنَّكَ زِيْنَةُ الأَمَاكِنِ وَالْبساتِينِ وَالْحُقُوْلِ، مَاذَا جَرَى لَكَ؟ مَا كُلُّ هذَا البُؤسِ يَا صَدِيقِي؟

قَالَ الزَّهْرُ بِصَوتٍ خَافِتٍ مرتعشٍ: كيفَ لا أَحْزَنُ! وإِنِّي أَمُوْتُ كلَّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ! أَلَا تَرَى كَمْ أصْبَحَ عَدَدُنا قليلاً؟ وَهَا نَحْنُ نَمُوْتُ سرِيْعاً!

نَظَرَ الْهُدْهُدُ فِيْ صَمْت، وراحَ يفكِّرُ يفكِّرُ، ثمَّ سألَ: ما سببُ هذا أيَّتُها الزهورُ الصَّفراءُ؟ أَخْبِرْيني عَنِ السَّبَبِ!

قَالَتِ الزُّهُوْرُ وَهِيَ تَبْكِيْ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الْغَمَامِ فَوْقَ الْوَادِيْ، يَحْمِلُ فِي مَائِهِ كَثِيْراً مِنَ

الْأَضْرَارِ، مَع أَنَّنَا نَنْتَظِرُ الْمَاْءَ بِفَارِغِ الصَّبْرِ؛ لَكِنْ عِنْدَمَا تُمْطِرُ السَّحَابَةُ الْمَطِيْرَةُ؛ يَخْتَلِطُ مَاؤُهَا بِالْهَوَاءِ الْمُمْتَلِىءِ بِالسُّمُومِ.

لَمْ يَفْهَمْ هَدْهُوْدُ مَاْ سَبَب السُّمُومِ.

فَأَخْبَرَتْهُ الأَزْهَارُ عَنْ مَصَادِرِهَا: اِزْدِيَادُ عَدَدِ السَّيارَاتِ، وَبَعْضُهَا لَا تَكُوْنُ مُلْتَزِمَةً بِشُرُوْطِ السَّلَامَةِ الْبِيئِيَّةِ.

ومن المصادرِ أيضاً: زيادةُ عددِ المَصَانعِ التي لا تكترثُ بانبعاثِ الدُّخانِ السّامِّ، فلا تعَالجُ ذَلك بالوَسَائلِ الحَديثَةِ.

كَانَتِ الأزهَارُ تتَابعُ حَديثَها، وَهدهودُ يَنصتُ باهتمامٍ.

إنَّ البَعضَ يَا هَدْهودُ يَقُومُ للأسفِ بدفنِ مُخَلَّفَاتِ المَصَانعِ في أَمَاكنَ غيرِ صَحِيحَةٍ، أوْ يَرْميها فِي البَحْرِ، أوَ فِي المَجَاري بَعِيداً عَنِ الرَّقَابَةِ.

ومِنَ الْأَسْبَابِ أَيْضاً: احْتَرَاقُ إطَارَاتِ السَّيارَاتِ بِسَبَبِ الإهْمَال، أَمَّا كَثْرةُ النِّفايَاتِ التي لَا يَتمُّ تَدويرُهَا بِطَرِيْقَةٍ علْميَّةٍ صَحِيحَةٍ فَمُشْكِلَةٌ كُبْرَى.

كانَ الهُدْهُدُ هَدْهُوْدُ يَسْتَمِعُ إِلَى كلِّ ذَلِكَ باهتمام، فأخبرتْهُ الزُّهورُ أَنَّهُ طَائِرٌ مَحْبُوْبٌ، وأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الطَّيَرَانَ وَالتَّنقُّلَ مِثْله، وأَنَّ عَلَيْهِ مُهِمَّةً خطيرةً يَجِبُ القيامُ بِهَا لِمُسَاعَدَتِهَا فِي حَلِّ مَشَاكِلِهَا حَتَّى لَا يَتِمَّ القَضَاءُ عَلَيْهَا نِهَائِيّاً.

الهُدْهُدُ الصَّغِيْرُ هَدْهُوْدُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كُلَّ هَذِهِ الْأُمُوْر؛ لَكِنَّهُ عِندما سمعَ بها أدركَ أنَّ عليهِ مسؤوليةً كبيرةً، وأنَّ عليهِ أشياءَ وأشياءَ يجبُ أنْ يقومَ بها.

فأخبرَ الزُّهورَ أنَّهُ سيقومُ بمساعدتها، وأنَّهُ سوفَ يكافحُ طوالَ حياتِهِ من أجلِها، ومن أجلِ الطَّبيعةِ الجميلةِ التي يحبُّها.

١٩ ـ الفيلُ أبو خرطوم

كانَ الفيلُ الكبيرُ الضَّخمُ صاحبُ الخرطومِ الطَّويلِ يسيرُ في الغابةِ بسعادةٍ، وكانَ رغمَ حجمِهِ الضَّخمِ وقوائمِهِ العريضةِ يتجنَّبُ بكلِّ حرصٍ أن يدوسَ على الأزهارِ الجميلةِ حتى لا يؤذي الطّبيعةَ.

وكانتِ الحيواناتُ الصغيرةُ عندما تشاهدُهُ تصرخُ بأعلى صوتِها وتفرُّ هاربةً منه وهي تنادي الحيواناتِ أمثالها: اهربوا، اهربوا، لقدْ جاءَ الفيلُ أبو خرطوم.

الفيلُ أبو خرطوم كانَ يحزنُ كثيراً؛ لأنَّ الحيواناتِ تهربُ منه مع أنهُ حيوانٌ لطيفٌ يحبُّ جميعَ حيواناتِ الغابةِ.

وفي يومٍ وفيما كان الفيلُ يمشي كعادتِهِ محترساً من دوسِ الأزهارِ على الطريقِ، سمعَ صوتاً يستنجدُ ويقولُ: ساعدوني ساعدوني.

أسرعَ الفيلُ نحو الصَّوتِ القريبِ، فوجدَ أرنباً صغيراً واقعاً في حفرةٍ عميقةٍ، وحولَ الحفرةِ تجمّعَ عددٌ من أصدقائِهِ الأرانبِ لا يعرفون كيف ينقذونَ صديقَهمُ الصَّغيرَ.

عندما اقتربَ الفيلُ، صاحتِ الأرانبُ: الفيلُ أبو خرطوم، ثم تفرَّقتْ هاربةً؛ لكنَّ الفيلَ لم يهتمَّ بذلكَ، واقتربَ بسرعةٍ نحوَ الحفرةِ.

مدَّ الفيلُ خرطومَهُ الطَّويلَ إلى أسفلِ الحفرةِ، وفرحَ الأرنبُ الصَّغيرُ، وتسلَّقَ الأرنبُ خرطومَ الفيلِ بسهولةٍ حتى خرجَ من الحفرةِ.

تجمَّعتْ حيواناتُ الغابةِ تشكرُ الفيلَ أبا خرطوم، وتهنئُ صديقَها الأرنبَ الصَّغيرَ على نجاتِهِ من الحفرةِ، وانتشرَ الخبرُ الجميلُ في أنحاءِ الغابةِ.

ومن يومِها لم تعدِ الحيواناتُ الصغيرةُ تهربُ من الفيلِ أبي خرطوم.

وصارَ اسمهُ منذُ ذلكَ اليومِ «الفيل المنقذ».

٢٠ ـ الفراشةُ مشمشةُ والزَّهرةُ زوزو

الفراشةُ مشمشةُ تستيقظُ باكراً وتبدأُ رحلتَها اليوميَّةَ بالتنقُّلِ بينَ الأزهارِ.

الفراشةُ مشمشةُ تحبُّ الأزهارَ، والأزهارُ تحبُّها، فهي تجعلُ الأزهارَ سعيدةً كما أنها تسعدُ بفطورها الصباحيِّ المغسولِ بالنَّدَى الباردِ.

وتبدأُ الفراشةُ يومَها بزيارةِ الزهرةِ الجميلةِ زوزو.

الزهرةُ زوزو تحبُّ مشمشةَ لأنَّها تساعدُ الأزهارَ لكي تصبحَ ثماراً طيّبةً يانعةً.

الفراشةُ الجميلةُ تعلمُ أنَّ الأزهارَ تحبُّها؛ لأنَّها تنقلُ اللّقاحَ من زهرةٍ إلى زهرةٍ؛ ولذلكَ فهي تقبلُ عليها كلَّ يومٍ بفرحٍ وسرورٍ، كما أنَّ الأزهارَ ترقصُ فرحاً كلَّما اقتربتِ الفراشةُ منها لتأكلَ طعامَها الشهيِّ.

الفراشةُ مشمشةُ مبتسمةٌ على الدَّوامِ.

والزَّهرةُ زوزو مبتسمةٌ مثلُ الفراشةِ.

الفراشةُ تعلمُ أنَّها كانتْ دودةً جميلةً، وأصبحتْ شرنقةً ناعمةً حريريَّةً، واليومَ هي فراشةٌ.

والزَّهرةُ تعلمُ أنَّها اليومَ زهرةٌ بعدما كانتْ برعماً صغيراً، وستتحوَّلُ غداً إلى ثمرةٍ لذيذةٍ.

الطَّبيعةُ سعيدةٌ بالفراشةِ والزهرةِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما تعرفُ ما كانتْ عليهِ بالأمسِ

وما ستصبحُ عليهِ غداً، والأهمُّ من كلِّ ذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما تعرفُ ما هو دورها الذي يجبُ أنْ تقومَ بهِ في الطَّبيعةِ الجميلةِ.

٢١ ـ العصفورُ والغصنُ

وقفَ العصفورُ الصَّغيرُ على غصنِ شجرةٍ فترةً طويلةً دونَ أن يغرّدَ مثل عادةِ الطُّيورِ الجميلةِ الملوَّنةِ.

سألَهُ الغصنُ: ما بكَ أيُّها العصفورُ الجميلُ صامتٌ لا تغرّدُ؟

تنهَّدَ العصفورُ من أعماقِ قلبِهِ وقالَ: كيفَ أغرّدُ وأنا أرَى أقراني العصافيرَ وهم يُقتلونَ كلَّ يومٍ برصاصِ الصَّيادينَ؟

قالَ الغصنُ: غرّدْ أيُّها العصفورُ غرّدْ، لا تكنْ أنتَ والصيادونَ في جانبٍ واحدٍ ضدَّ الطَّبيعةِ الجميلةِ؛ عصفورٌ بلا تغريدٍ، شجرةٌ بلا ثمرٍ!

غرّدْ أيُّها العصفورُ غرّدْ! ولا تتوقَّفْ عنِ التَّغريدِ رغمَ أنفِ كلِّ الصَّيادينَ.

ابتسمَ العصفورُ وعادَ يغرّدُ بأعلى صوتِهِ بلا توقُّفٍ.

ضمَّتِ الشَّجرةُ أغصانَها طرباً من صوتِهِ الجميلِ، وتجمَّعتْ أوراقُها لتحميَهُ من غدرِ الصَّيادينَ.

٢٢ ـ البرغوثةُ الشَّقراءُ والقطَّةُ السَّوداءُ

زارتْ برغوثةٌ شقراءُ يوماً صديقتَها السَّوداءَ في بيتِها على ظهرِ قطَّةٍ سوداءَ.

راحتِ البرغوثةُ الشَّقراءُ تبحثُ عن صديقتِها طويلاً دونَ أنْ تجدَها.

وفي النِّهايةِ سمعتْ صوتاً من ورائِها ينادي يقولُ: منذُ ساعةٍ وأنا أمشي وراءَكِ دونَ أنْ تلاحظي وجودي.

ضحكتِ البرغوثةُ الشَّقراءُ وقالتْ لها: لولا صوتُكِ ما رأيتُكِ، ألمْ يكنْ منَ الأفضلِ لكِ لو سكنتِ ظهرَ قطّةٍ بيضاءَ؟

ضحكتِ البرغوثةُ السَّوداءُ من جهلِ البرغوثةِ الشَّقراءِ وقالتْ لها: أنتِ برغوثةٌ لا تعرفي فنَّ الحياةِ.

وقبلَ أنْ تشرحَ البرغوثةُ الشَّقراءُ كلامَها لمحتْها القطَّةُ السَّوداءُ وقضمتْها بأسنانِها.

رابعاً

قصصُ النَّباتاتِ

٢٣ ــ التُّفاحةُ التي لم توقظْها الشَّمسُ

٢٤ ــ شجرةُ الموزِ

٢٥ ــ عنقودُ العنبِ

٢٦ ــ وَرَقَةُ التُّوتِ الخَشِنَةِ

٢٧ ــ الزَّنبقةُ البيضاءُ

٢٨ ــ الشُّجيرةُ الطَّموحةُ

٢٩ ــ الخوخةُ والمشمشةُ والدُّرّاقةُ

٣٠ ــ توتة توتة وخلصت الحدوتة

٢٣ ـ التُّفاحةُ التي لم توقظها الشَّمسُ

سقطتْ تفاحةٌ خضراءُ من أعلى الشَّجرةِ بعدَ أنْ هزَّتْها ريحٌ عبرتْ فجأةً.

وقعتِ التُّفاحةُ في أحضانِ حشائشِ الأرضِ.

ضمَّتْها الحشائشُ بحنانٍ أبعدَ عنها ألمَ السَّقطةِ.

كانتِ التُّفاحةُ نائمةً وقتَ وقوعِها مثل فراشةٍ.

ظلَّتِ التُّفاحةُ نائمةً، التقطتْها الحشائشُ بأطرافِ أناملِها، وأرقدتْها بسلامٍ على خدودِها النّاعسةِ.

في العادةِ؛ تفتحُ التُّفاحةُ عينيها عندَ تفتُّحِ الشَّمسِ في الصَّباحِ الباكرِ؛ لكنَّ الشَّمسَ اليومَ لم توقظِ التُّفاحةَ.

التُّفاحةُ نائمةٌ في مهدِها الجديدِ، ملتحفةٌ حشائشَ الأرضِ الدافئةِ.

نعومةُ الفِراشِ الجديدِ والغلالةِ الرقيقةِ أطالت نومَ الفراشةِ.

مرَّ ابنُ المزارعِ قربَ الشَّجرةِ، نبَّهتْهُ شقاوتُهُ إلى عنقِ التُّفاحةِ المختبئةِ بينَ الحشائشِ الخضراءِ.

مدَّ يدَهُ إليها، واستيقظتْ قضمةٌ هنيَّةٌ بينَ فكَّي الفَتى.

كانتْ فطورَهُ الشَّهيّ ذلكَ الصباح.

٢٤ ـ شَجرةُ الموزِ

قرَّرتْ شجرةُ الموزِ أنْ تغيِّرَ لونَها، فتحدَّثتْ مع صديقِها الغرابِ، وقالتْ له:

يا غرابُ، يا صديقي، لونُكَ الأسودُ أجملُ بكثيرٍ من لوني الأصفرِ. أريدُ أنْ يصبحَ لوني مثلَ لونِكَ، وبذلكَ يهربُ النّاسُ مني، ويتركون ثماري، فأعيشُ وحدي فلا يزعجني أحدٌ.

ضحكَ الغرابُ، وقالَ لها: عجيب! هذه أوّلُ مرَّةٍ أسمعُ بمثلِ هذهِ الفكرةِ، شجرةُ موزٍ سوداءُ!؟

أعرفُ أنَّ هناكَ حيواناتٍ تغيّرُ لونَها لتحميَ نفسَها؛ لكنّي لم أسمعْ عن شجرةِ موزٍ تغيّرُ لونَها! هذا أمرٌ عجيبٌ.

قالتِ الشَّجرةُ: وما العجيبُ في ذلكَ؟! أريدُ فقطْ أنْ أحيا بسلامٍ ولا يقتربَ مني أحدٌ.

قال لها الغرابُ ساخراً: فهمتُ يا شجرةَ الموزِ، فكرةٌ معقولةٌ.

قالت له: هل مِن طريقةٍ يمكن القيامُ بها من أجلِ أنْ يصبحَ لوني مثل لونِكَ؟

قالَ: صديقي الأخطبوطُ يعيشُ على الشّاطىءِ القريبِ، سأذهبُ إليهِ، كما أعلمُ فإنَّهُ يصدرُ لوناً يشبهُ الحبرَ الأسودَ عندما يتعرَّضُ للخطرِ، سأذهبُ إليه ليعطيني قليلاً من هذا الحبرِ.

ذهبَ الغرابُ وطلبَ من صديقِهِ الأخطبوطِ بعضَ هذا الحبرِ.

وعندما علمَ الأخطبوطُ لماذا يريدُ الغرابُ الحبرَ، ضحكَ طويلاً، ثمَّ أعطاهُ كيساً مملوءاً بالحبرِ.

طارَ الغرابُ حتى وصلَ إلى الشَّجرةِ، وكانَ شديدَ التَّعبِ.

طلبتْ منه شجرةُ الموزِ أن يلوّنَها بهذا اللّونِ القاتمِ، فاستمْهَلَها حتى يرتاحَ من عناءِ هذا الحَملِ الثَّقيلِ.

وبعدَ فترةٍ من الوقتِ سألَها: أأنتِ متأكّدةٌ من هذا العملِ؟ لو صبغتُكِ باللَّونِ الأسودِ لن يعودَ لونُكِ كما كانَ؛ حتى لو أمطرتِ السَّماءُ كلَّ يومٍ.

أكَّدتْ له الشَّجرةُ أنّها مصرّةٌ على ذلكَ وقالتْ: هذه أفضلُ طريقةٍ تحمي ثماري، أعني: أولادي منْ أنْ يأخذَهم النّاسُ مني.

وبعدَ أنِ استراحَ الغرابُ، قامَ بصبغِ شجرةِ الموزِ بالحبرِ الأسودِ.

وعندَما حلَّ المساءُ كانَ الغرابُ قدِ انتهى من عملِهِ.

ومن شدَّةِ الإرهاقِ نامَ على شجرةِ الموزِ نفسِها.

وفي الصَّباحِ الباكرِ، جاءَ المزارعُ على عجلٍ، فرأى منظرَ الشَّجرةِ قد تحوَّلَ إلى اللَّونِ الأسودِ، ففزعَ وأصابَهُ رعبٌ شديدٌ من أنْ تكونَ الشَّجرةُ قد أصابتْها جرثومةٌ خبيثةٌ؛ ربما تقضي على كلِّ أشجارِ الموزِ في الحقلِ.

كانتْ أشجارُ الموزِ ترى وتسمعُ كلَّ ما يحدثُ، وكانتْ حزينةً جداً على أختِهم المسكينةِ التي لطالما نصحتْها الأشجارُ ولم تكنْ تستمعُ إلى نصيحتها.

وعلى عجلٍ شديدٍ؛ أحضرَ المزارعُ أدواتِهِ، وقلعَ الشَّجرَةَ من جذورها ووضعَها في كيسٍ

كبيرٍ، ونقلَها في سيارةٍ كبيرةٍ إلى مكانٍ بعيدٍ حيثُ لا تشكّلُ خطراً على أشجارِ الموزِ، ورماها فوقَ كومةٍ من النّفاياتِ والأوساخِ.

استيقظَ الغرابُ من نومِهِ العميقِ، ورأى نفسَهُ فوقَ تلالٍ من النِّفاياتِ.

كانتْ شجرةُ الموزِ السوداءِ تبكي، وكانتْ دموعُها تختلطُ بلونِ الحبرِ الأسودِ.

أصيبَ الغرابُ بصدمةٍ كبيرةٍ ممّا رأى، فصارَ يقطعُ الكيسَ بمنقارِهِ، ثمَّ طارَ وهو يندبُ حظَّهُ.

٢٥ ـ عنقودُ العنبِ

لم يتوقعْ عنقودُ العنبِ عندما كانَ حصرماً صغيراً أنْ يصبحَ طعمُهُ مثلَ السُّكرِ. كانَ يشعرُ بطعمِهِ الحامضِ المرِّ، ويرى النّاسَ يتجاوزونَهُ إلى العناقيدِ النّاضجةِ.

أدركَ العنقودُ منذُ صغرِهِ معنى النُّضجِ، ومعنى أن يمضي أسابيعَ طويلةً مملَّةً يتدلَّى على شجرةِ العنبِ.

كانَ العنقودُ الصَّلبُ في حبّاتِهِ، الأخضرُ في لونِهِ يتأمَّلُ الرِّيحَ والسَّماءَ والنُّجومَ والتُّرابَ، والنَّاسُ يروحونَ ويجيئونَ من حولِهِ، وصارَ يعرفُ المكانَ بكلِّ تفاصيلِهِ؛ حتى الحشرات الصَّغيرة التي تمشي على الأرضِ.

كانَ العنقودُ سعيداً جداً وهو يراقبُ حالاتِ نضجِهِ، وتحوُّلَهُ يوماً بعدَ يومٍ من عنقودٍ شديدِ الحموضةِ إلى عنقودٍ شديدِ الحلاوةِ.

وعندما بدأَ يشعرُ بحلاوتِهِ، أدركَ اقترابَ موعدِ الحصادِ، وأنَّ يومَ قطفِهِ باتَ قريباً، فصارَ يحرصُ كلَّ يومٍ على أنْ يعرِّضَ جسدَهُ للماءِ الذي ينثرُهُ المزارعُ الطَّيّبُ على حبّاتِهِ، فكانَ يشعرُ بالانتعاشِ والرِّضا.

بدأَ لونُ العنقودِ يتغيَّرُ، وبدأَ النُّضجُ يظهرُ عليهِ؛ حتى أصبحَ ذهبيَّ اللَّونِ، يلمعُ تحتَ أشعَّةِ الشَّمسِ، وجاءَ المزارعُ في الصَّباحِ يتفقَّدُ زرعَهُ؛ راحَ العنقودُ يناديهِ بكلِّ حبٍّ، ويقولُ له: تعالَ يا سيّدي واقطفني، لقدِ اشتقتُ إلى يديكَ.

نظرَ المزارعُ إلى العنقودِ بفرحٍ، وقالَ في نفسِهِ: ليسَ بعدُ، ثمَّ مضى في طريقِهِ.

شعرَ العنقودُ بالأَسَى، فهو يريدُ أن يحظَى بهذا التكريمِ وهذا الشَّرفِ، فكلُّ يومٍ يرى أقرانَهُ العناقيدَ وقد وُضعتْ في سلالِ القشِّ بعنايةٍ وحنانٍ.

ظلَّ العنقودُ ينتظرُ موعدَ قطافِهِ كلَّ يومٍ، وإذا مرَّ المزارعُ قربَهُ ومضى، كانَ يقولُ: غداً موعدُنا.

وفي يومٍ مشرقٍ سعيدٍ؛ جاءَ المزارعُ بنشاطِهِ المعهودِ، ومضى مباشرةً إلى العنقودِ الجميلِ، قطفَهُ برقَّةِ الأبِ الحنونِ، ووضعَهُ في سلَّةِ القشِّ، ومضى يشكرُ اللهَ على ما أعطاهُ من نِعمٍ.

٢٦ ـ وَرَقَةُ التُّوتِ الخَسِنَةِ

شَعَرَتْ وَرقةُ توتٍ صَغيرةٍ بالخَجَلِ منْ خُشونةِ مَلمَسِهَا، وَصَارَتْ تَحْسُدُ زُهُورَ الحقلِ المتنوِّعةَ على نعومتِها.

لم تكنْ ورقةُ التُّوتِ سعيدةً بشكلِها، رغمَ لونِها الأخضرِ الجميلِ، وعروقِها المتناسقةِ، فهي تتمنى أنْ تكونَ ناعمةً شفّافةً، تتمايلُ مثلَ الأزهارِ.

وفي يومٍ؛ شاهدتْ وَرقةُ التُّوتِ دودةَ قزٍّ كبيرةٍ بالسِّنِّ، تسيرُ على الأرضِ، تَحاولُ صعودَ شجرةِ التُّوتِ؛ لتأكلَ بعضَ أوراقِها الطَّريَّةِ؛ لكنَّها لم تستطعْ، فاقتربتِ الدُّودَةُ من وردةٍ صغيرةٍ جميلةٍ ناعمةِ الأوراقِ.

ظنَّتْ وَرقةُ التُّوتِ أنَّ الدُّودَةَ سوفَ تأكلُ أوراقَ الوَرْدَةِ، وَتستمتعُ بها.

اقتربتِ الدُّودَةُ منْ أوراقِ الوردةِ، وقضمتْ بفمِها قضمةً صَغِيرةً، لكنَّ الدُّودَةَ رَمتِ القطعَةَ؛ فقدْ كَانَ طعمُهَا مُرّاً، وَلَمْ يَعْجبْها، فاسْتَسْلمتِ الدُّودَةُ لمَصِيرِها.

أدركتْ ورقةُ التُّوتِ أنَّ الدُّودَةَ العجوزَ سوفَ تَمُوتُ منَ الجوعِ، رقَّ قلبُها، فاهتزَّتْ بعنفٍ حتى قطعتْ عنقَها، وسقطتْ أمامَ الدُّودَةِ المِسْكينةِ.

عنْدها بَذلتِ الدُّودَةُ جُهداً كبيراً، وزحفتْ نَحوَها، ثمَّ بدأتْ تلتهمُها مِن شدَّةِ جُوعِهَا.

كانتْ ورقةُ التوتِ فخورةً بنفسِها وهي تقدِّمُ نفسَها فداءً للدودةِ، وكانتِ الدُّودَةُ تأكلُ

الورقةَ بلذَّةٍ، فشعرتِ الورقةُ عنْدَها أنَّ خشونتَها التي كانت تخجلُ منها أطيبَ عندَ الدُّودَةِ منْ نُعُومَةِ الوَرْدَةِ، وَكانَتْ سَعيدَةً جِداً وَهِيَ تنقذُ الدُّودَة مِنَ المُوتِ.

٢٧ ـ الزَّنبقةُ البيضاءُ

عاشتْ زنبقة بيضاءُ في إناءٍ جميلٍ، هي لا تذكرُ تماماً المكانَ الذي جاءتْ منه؛ لأنّها سكنتْ هذا الإناءَ منذُ زمنٍ بعيدٍ، وكانتْ برعماً صغيراً؛ لكنَّها اليومَ أصبحتْ زنبقةً كبيرةً، ذاتَ ساقٍ طويلٍ ممتدٍّ جميلٍ.

عنقُ الزَّنبقةِ يصلُ إلى مكانٍ مرتفعٍ، تزهو بعنقِها الجميلِ كما تفخرُ برائحتِها الزّكيَّةِ.

لم تشكُ الزنبقةُ يوماً من إنائِها، وكانَ الإناءُ يحبُّها كما تحبُّهُ.

عاشتِ الزَّنبقةُ البيضاءُ في موطنِها الجديدِ هذا، وهي بالكادِ تذكرُ موطنَها الأصيلَ.

هي تحنُّ دائماً إلى الحديقةِ الغنّاءِ؛ حيثُ ولدتْ وعاشتْ طفولتَها؛ لكنَّها اليومَ سعيدةٌ بوطنِها الثّاني، رغمَ أنها لا تنكرُ وطنَها الأوَّلَ، وتفخرُ بالوطنينِ معاً.

٢٨ ـ الشَّجيرةُ الطَّموحةُ

شجيرةٌ صغيرةٌ وسطَ البستانِ، عمرُها سنواتٌ قليلةٌ، ولم يحنْ بعدُ موعدُ حملِها للثمارِ، ما زالتْ صغيرةً؛ لكنَّها تظنُّ نفسَها كبيرةً؛ فالأشجارُ الكبيرةُ من حولِها تحملُ الكثيرَ من الثِّمارِ، وفي الرَّبيعِ تكثرُ على أغصانِها الأزهارُ، ثمَّ تخرجُ من بينِ الأزهارِ ثمارٌ يانعةٌ.

الشَّجرةُ الصَّغيرةُ كانتْ تراقبُ أخواتِها الأكبرَ منها سناً؛ لكنَّها تبقى حزينةً، وتقول لهنَّ باستمرارٍ: متى يحينُ موعدُ تفتُّحِ الزهورِ على أغصاني؟

فيقلْنَ لها: لا تستعجلي أمرَكِ، فلكلٍّ منا وقتُهُ المناسبُ.

لم تكنِ الشَّجرةُ الصَّغيرةُ تسكتُ عن هذا السؤالِ، كلُّ يومٍ تكرِّر السؤالَ نفسَهُ.

وكانتِ الشَّجراتُ الأخرياتُ تضحكُ منها، وتقولُ في سرِّها: كم ثرثرنا من قبلكِ، واليومَ نتمنى لو عدْنا شجيراتٍ صغيراتٍ.

٢٩ ـ الخوخةُ والمشمشةُ والدّرّاقةُ

اجتمعتْ خوخةٌ ومشمشةٌ ودراقةٌ في سلَّةِ فواكهَ على ظهرِ مركبٍ في يومٍ من الأيّامِ.

قالتِ الخوخةُ: من منكما تجيدُ السّباحةَ؟

قالتِ المشمشةُ: هذهِ أوّلُ مرَّةٍ أشاهدُ البحرَ.

قالتِ الدّرّاقةُ: بالنسبةِ لي كنتُ أشاهدُ البحرَ من بعيدٍ؛ لكنّي لم أجرِّبِ السّباحةَ في يومٍ من الأيّامِ.

قالتِ المشمشةُ: عجيبٌ أمرُنا! بالأمسِ كلُّ واحدةٍ منّا كانتْ على شجرةٍ مختلفةٍ، واليومَ نطوفُ البحرَ معاً على مركبٍ جميلٍ، والأمواجُ تحرّكُ المركبَ شمالاً ويميناً.

أجابتْها الخوخةُ: وغداً لا ندري أين سنكونُ؟

وفي المساءِ؛ كانتْ بذورُ الخوخةِ والمشمشةِ والدّرّاقةِ تصارع موجَ البحرِ.

٣٠ ـ توتة توتة وخلصت الحدوتة

سمعتْ حبَّـةُ توتٍ صغيرةٍ بالسِّنِّ يوماً أنَّ الحكاياتِ القديمةَ عادةً ما تنتهي بالقولِ: «توتة توتة... وخلصت الحدوتة».

سألتْ حبَّةُ التّوتِ الذَّكيَّةُ حبَّةَ توتٍ كبيرةٍ بالسِّنِّ في أعلى الشَّجرةِ الهرمةِ: لماذا يقولُ النّاسُ هكذا؟

أجابتْها حبَّةُ توتٍ عجوزٍ بعدَ أنْ تنهَّدتْ تنهيدةً عميقةً: منذُ صغري وأنا أسمعُ مثلَ هذهِ النهاياتِ؛ لكني لا أشغلُ نفسي كثيراً بمثلِ هذا السؤالِ.

فقالتْ لها: ولماذا يا جدَّتي؟

أجابتْها: لأنَّ التّوتةَ تحبُّ دائماً سماعَ الحكاياتِ، وأنا ما زلتُ حتى اليوم أحبُّ الحكاياتِ القديمةَ والجديدةَ.

قالتِ التُّوتةُ الصَّغيرةُ: إذاً احكي لي حكايةَ التّوتةِ.

ضحكتْ حبَّةُ التّوتِ العجوزُ من أعماقِ قلبِها، وقالتْ: أنا أحبُّ فقطْ سماعَ الحكاياتِ؛ لكني لا أحبُّ روايتَها، فأنا مجرَّدُ توتةٍ، وأفرحُ كثيراً عندما يقولونَ في نهايتِها (توتة توتة وخلصت الحدوتة)؛ لكنْ للأسفِ لم تعدِ الحكاياتُ الجديدةُ تنتهي بمثلِ هذه الجملةِ

الجميلةِ، أما الجدّاتُ الجميلاتُ فما زلنَ حتى اليوم في نهايةِ الحكاياتِ التي يروينها يضفنَ من عندِهنَّ هذهِ الجملةَ عندما يقرأْنَ قصصاً لأحفادِهِنَّ الصّغارِ.

أشاحتِ التُّوتةُ الصَّغيرةُ بنظرِها إلى مكانٍ آخرَ، وقالتْ: ما أجملَ الجدّاتِ الجميلاتِ!

خامساً

حكاياتٌ بحريَّةٌ

٣١ ــ الأخطبوطُ المشاغبُ الذَّكيُّ

٣٢ ــ السَّمكةُ التي طارتْ

٣٣ ــ القنديلُ الحزينُ سعيدٌ

٣٤ ــ دجاجةُ البحرِ: المفترسةُ الجميلةُ

٣٥ ــ الحبارُ العملاقُ وحوتُ العنبرِ

٣٦ ــ نجمةُ البحرِ تبحثُ عن قمرٍ

٣٧ ــ القرشُ البهلوانُ المدهشُ

٣٨ ــ حصانُ البحرِ وحصانُ البرِّ

٣١ ـ الأخطبوطُ المشاغبُ الذكيُّ

عاشَ الأخطبوطُ الصغيرُ سعيداً مع مجموعةٍ من إخوانِهِ الأخاطيبِ في بيتٍ جميلٍ واسعٍ في أعماقِ البحارِ.

كانَ لونُ الأخطبوطِ الصَّغيرِ بلونِ المرجانِ الأحمرِ، ولم يكنْ إخوتُهُ ولا كثيرٌ من رفاقِهِ بمثلِ لونِهِ وجمالِهِ ومهارتِهِ في السباحةِ، فأطرافُهُ الثَّمانيةُ متناسقةٌ في أشكالِها، رشيقةٌ في حركاتِها، ورأسُهُ معتدلُ الحجمِ، يتراخى مع الماءِ، ويتدلَّى ويرتجُّ كلَّما أسرعَ في السِّباحةِ.

الأخطبوطُ الصَّغيرُ كانَ يحرصُ على البقاءِ قريباً من بيتِهِ ولا يبتعدُ كثيراً عن إخوانِهِ الأكبرِ منه عمراً وحجماً.

تدرَّبَ الأخطبوطُ الصَّغيرُ على الدِّفاعِ عن نفسِهِ.

كانَ أخوهُ الأكبرُ حريصاً على أنْ يدرّبَ جميعَ إخوانِهِ الصِّغارِ، فهم يبقونَ بمفردِهم معظمَ الوقتِ، حيثُ يخرجُ أبوهم وأمُّهم بحثاً عنِ الطَّعامِ الشَّهِيِّ اللّذيذِ.

الأخُ الأكبرُ تعلَّمَ الكثيرَ من أبيهِ في وقتٍ سابقٍ، وهو الآنَ يعلِّمُ إخوتَهُ الصِّغارَ خوفاً عليهم من الأخطارِ.

تعلَّمَ الأخطبوطُ الصَّغيرُ أنْ يستخدمَ قواهُ وسرعتَهُ في الدِّفاعِ عن نفسِهِ؛ لكنَّهُ لا يستطيعُ دائماً الدِّفاعَ عن نفسِهِ ضدَّ من هو أقوى منه وأكبرُ حجماً ولا سيّما كائناتِ البحرِ المفترسةِ.

علَّمَهُ أخوه كما علَّمَ إخوتَهُ فنونَ القتالِ، وكيفَ يستخدمونَ أطرافَهمُ الثَّمانيةَ للدِّفاعِ عن أنفسِهِم، وكانَ يوصيهم بعدَمِ التفرُّقِ، والبقاءِ في جماعةِ الأخاطيبِ.

لكنْ إذا جاءَ وحشٌ كبيرٌ وكانَ أحدُهم بمفردِهِ، عليهِ أن ينطلقَ هارباً بسرعةٍ من أمامِ الوحشِ المفترسِ.

غيرَ أنَّ سرعةَ الأخطبوطِ بطيئةٌ مقارنة مع سرعةِ القرشِ مثلاً. فماذا علبهم أن يفعلوا وهم لا يملكونَ أسناناً مثل أسنانِ القرشِ، ولا جسماً جباراً مثل جسمِهِ المخيفِ؟!

أخبرَهم أخوهم الأكبرُ أنهم يملكونَ سلاحاً خطيراً لا يملكهُ أحدٌ غيرَهم، ويمكنهم أن يحموا به أنفسَهم، وأنْ يجعلوا وحوشَ البحرِ تبعدُ عنهم.

فرحَ الإخوةُ الصِّغارُ بذلكَ، وسعدوا بما وهبهمُ اللهُ من وسيلةٍ تحفظُ لهم حياتَهم عندَ الخطرِ.

أخبرَهم الأخُ الأكبرُ أنهم يملكونَ وسيلةَ دفاعٍ تطلقُ نوعاً من الحبرِ الدّاكنِ اللَّونِ يمكنُ أنْ يتغيَّرَ لونُهُ بحسبِ المكانِ الذي يكونون فيهِ.

وعندما يحدث عليهم هجومٌ ما، ويفرّون من أمامِ المهاجمِ؛ فإنَّ علبهم أن يطلقوا هذا الحبرَ الدّاكنَ على الفورِ، فلا يستطيعُ المهاجمُ أنْ يلحقَ بهم بسهولةٍ، وعندها يسهلُ الفرارُ رغمَ بطءِ حركتِهِم مقارنة بحركاتِ المهاجمِ السريعةِ.

وبدأَ الأخُ الأكبرُ يعلِّمُهم كيفَ يطلقون هذا الحبرَ، وأوصاهم بأنْ يستخدموهُ فقطْ عندَ الضَّرورةِ، وأن لا يسرفوا في استخدامِهِ.

وكانَ يطلبُ منهم أنْ يتدرَّبوا على استخدامِ هذا الحبرِ بإطلاقِ بضعِ قطراتٍ، ثمَّ عليهم

أن يفرُّوا من المكانِ فيما تنتشرُ القطراتُ من خلفِهِم، كما أنَّ هذهِ القطراتِ تغيِّرُ لونَهم، فلا يعثرُ عليهمُ الخصمُ بسهولةٍ.

كانتِ الأخاطيبُ الصِّغارُ تتدرَّبُ كلَّ يومٍ على ذلكَ، وقد أعجب الأخطبوطَ الأصغرَ سناً هذا التدريبُ.

وصارَ يطلقُ الحبرَ في كلِّ مكانٍ يرسمُ به رسوماً متعددةً، يلوّنُ به بعضَ الصخورِ في قاعِ البحرِ، يرسمُ على الرِّمالِ، وما أن يبدأ بالرَّسمِ حتى يمتزجَ لونُ الحبرِ مع الماءِ.

وكانَ إخوتُهُ ينهونَهُ عن ذلكَ؛ لكنَّهُ كانَ يبتعدُ عنهم ليلعبَ لعبتَهُ المفضَّلةَ، وراحَ يستهلكُ كلَّ الحبرِ الذي يملكُهُ بوفرةٍ، ولم يستمعْ إلى نصيحةِ أخيهِ الكبيرِ.

وفي يومٍ؛ وفيما كانَ الأخطبوطُ الصَّغيرُ يلهو لوحدِهِ خلفَ بيتِهِ، فاجأَهُ ثعبانٌ بحريٌّ رشيقُ الحركةِ، وكادَ يفتكُ به لولا أنَّ لطمَهُ بأطرافِهِ، وأسرعَ بالسِّباحةِ؛ يضربُ الماءَ بعنفٍ، وقرَّرَ أنْ يطلقَ الحبرَ الدّاكنَ لكي يربكَ الثعبانَ من خلفِهِ.

لكنَّ محاولتَهُ باءتْ بالفشلِ، ولم يستطعْ إطلاقَ سوى بضعِ قطراتٍ بعدَ أن نفدَ الحبرُ منه في لعبِهِ ولهوِهِ.

أصيب اَلأخطبوطُ برعبٍ شديدٍ، وشعرَ أنَّهُ هالكٌ لا محالةَ، وصارَ يضربُ الماءَ بقوَّةٍ أكبرَ، ودونَ وعيٍ؛ مترقّباً أنْ يقبضَ عليهِ الثعبانُ، ويعتصرَهُ بينَ لحظةٍ وأخرى، وبدأَ يتخيَّلُ نفسَهُ في فمِ هذا الثُّعبانِ الشَّرسِ.

وفي تلكَ اللَّحظةِ سمعَ إخوةُ الأخطبوطِ الصَّغيرِ صوتَ ضرباتِ أطرافِهِ، وأدركوا أنها ضرباتُ استغاثةٍ.

هبّوا جميعاً نحوَ الصَّوتِ، وهالَهم منظرُ الثُّعبانِ، فأطلقُوا جميعاً الحبرَ الدّاكنَ حتى اختلطَ بلونِ البحرِ، واضطرَّ الثُّعبانُ للانسحابِ بعدَ أنْ شعرَ بأنَّ الخطرَ اقتربَ منه.

رجعتِ الأخاطيبُ إلى بيتِها، واجتمعتْ بعدَ عودةِ الأبِ والأمِّ، وهنَّأَ الجميعُ الأخطبوطَ الصَّغيرَ على نجاتِهِ من أنيابِ ذلكَ الثُّعبانِ.

وقالَ له أبوهُ: هذهِ المرَّة أنقذَكَ حظُّكَ السَّعيدُ، فهلْ ستقعُ في المشكلةِ نفسِها مرَّةً أخرى؟

لكنَّ الأخطبوطَ المحظوظَ كانَ ذكيّاً، ومنذُ ذلكَ اليومِ أصبحَ حريصاً على حبرِهِ الدّاكنِ، ولا يستخدمُهُ إلا عندَ وقوعِ الخطرِ.

٣٢ ـ السَّمكةُ التي طارتْ

عاشتِ السَّمَكةُ صاحبةُ الفمِ الكبيرِ والجسدِ الرَّفيعِ النَّحيلِ الطَّويلِ والزَّعانفِ الواسعةِ الممتدَّةِ تتنقَّلُ من بحرٍ إلى بحرٍ، ومن عمقٍ إلى سطحٍ، ومن بحرٍ صغيرٍ إلى محيطٍ واسعٍ كبيرٍ.

كانتِ السَّمَكةُ تحبُّ السَّفرَ، ولا تقضي في مكانٍ واحدٍ يومينِ متتاليينِ.

شعرتِ السَّمَكةُ أنَّ هذهِ البحارَ والمحيطاتِ الواسعةَ الرَّحبةَ لم تعدْ تشبعُ حبَّها للرحلاتِ والاستكشافِ، وبدأت تفكّرُ بشيءٍ جديد.

سمعتْ من بعضِ الأسماكِ أنّها وقعتْ مرَّةً في شِباكِ مخلوقاتٍ تعيشُ خارجَ الماءِ، وأنّها عندما خرجتْ من الماءِ تقطَّعتْ أنفاسُها، ولم تعدْ تستطيعُ التَّنفسَ من دونِ الماءِ.

وما أن أُزيلتْ عنها الشِّباكُ؛ حتى هاجتْ، وتحرَّكتْ بكلِّ قوَّتِها، وتمكَّنتْ من الإفلاتِ والعودةِ إلى البحرِ.

ومنذُ ذلكَ اليومِ؛ لم تعدْ تصعدُ إلى سطحِ الماءِ، حيثُ ضوءُ الشَّمسِ، وتفضِّلُ البقاءَ في ظلمةِ قاعِ البحرِ.

وفكَّرتِ السَّمَكةُ ذاتُ الفمِ الكبيرِ أنَّ تلكَ السَّمَكةَ عقلُها صغيرٌ، ولا تتكلَّمُ الصِّدقَ، ولو كانت تفكِّر قليلاً لأمكنَها أنْ تعيشَ في أيِّ مكانٍ خارجَ البحارِ.

أصبحَ صدرُ السَّمَكةِ ضيِّقاً رغمَ اتِّساعِ مساحاتِ البحارِ والمحيطاتِ، تريدُ أنْ تخرجَ من

هذا السِّجنِ الكبيرِ، فقرَّرتْ أنْ تصعدَ لترَى العالمَ فوقَ الماءِ؛ لكنَّ بعضَ السَّمكاتِ الحكيماتِ عندما علمْنَ بأفكارِها هذهِ، حاولْنَ أنْ يمنعنَها وينصحْنَها. تشبَّثتِ السَّمَكةُ برأيِها وفكرتِها، ولم تعدْ تسمعُ غيرَ نفسِها، فصعدتْ إلى قربِ سطحِ البحرِ.

أصبحَ نورُ الشَّمسِ قوياً، ولم تكنِ السمكةُ ذاتُ الفمِ الكبيرِ معتادةً على ذلك، فسبحتْ نحوَ الأعماقِ، وهي تفكِّرُ بالعودةِ بعدَ أنْ تميلَ الشَّمْسُ إلى الغروبِ؛ كي تتمكَّنَ من رفعِ رأسِها خارجَ الماءِ.

وعندَ اقترابِ المساءِ؛ عادتِ السَّمَكةُ ذاتُ الفمِ الكبيرِ إلى سطحِ البحرِ، وبدأت تخرِجُ رأسَها قليلاً؛ حتى ينقطعَ نفسُها، فتعيدَ رأسَها إلى الماءِ في لحظاتٍ. أخذتْ نفساً عميقاً جداً، وأغلقتْ خياشيمَها. رفعتْ رأسَها كاملاً خارجَ الماءِ، فلفحَ وجهَها الهواءُ المنعشُ، ورأتْ زرقةَ السَّماءِ الصافيةِ، ولمحتِ الطُّيورَ تحلّقُ في الفضاءِ بكلِّ حريَّةٍ.

فرحتِ السَّمَكةُ كثيراً بمغامرتِها، وعادتْ إلى البحرِ لتخبرَ بعضَ الأسماكِ بهذهِ المغامرةِ المدهشةِ؛ لكنَّ الأسماكَ جميعاً لم تعجبْهن هذهِ المغامرةُ، فاتَّهمتْهنَّ بأنّهنَّ صغيراتُ العقلِ، ولا يملكْنَ عقلاً كبيراً مثلَها.

وراحتِ السَّمَكةُ تفكِّرُ بأنَّها لو تدرَّبتْ على الطَّيرانِ مثل الطيورِ التي شاهدتْها وهي تطيرُ في الفضاءِ سوف تطيرُ بسهولةٍ، خاصَّةً أنها تملكُ زعانفَ كبيرةً، وجسمُها طويلٌ، ولو حرَّكتْ زعانفَها الكبيرةَ بسرعةٍ سوفَ تطيرُ وتطيرُ وتحلِّقُ في السَّماءِ.

ظنَّتِ السَّمَكةُ المسكينةُ أنَّ الطَّيرانَ في الفضاءِ يشبهُ السّباحةَ في الماءِ، وبعدَ أيّامٍ عادتْ

إلى الأعلى، ومطَّتْ رأسَها فوقَ الماءِ بعدَ أنْ أخذتْ نفساً طويلاً وعميقاً، ورفعتْ جسدَها خارجَ الماءِ، مستعينةً بذيلِها القويِّ، وحاولتِ القفزَ وتحريكَ زعانفِها بقوَّةٍ.

كانَ عصفورٌ جائعٌ يحومُ في المكانِ، فشاهدَ هذهِ الفريسةَ اللَّذيذةَ الطعمِ تلمعُ فوقَ صفحةِ الماءِ، فالتقطَها بكلِّ سهولةٍ، وحملَها طائراً في الهواءِ.

ومن فرطِ جهلِ السَّمَكةِ المسكينةِ ظنَّتْ نفسَها تطيرُ وتطيرُ، وفي النِّهايةِ كانتْ وجبةَ عشاءٍ شهيَّةً للطّائرِ المحظوظِ وأسرتِهِ السعيدةِ.

٢٣ ـ القنديلُ الحزينُ سعيدٌ

عائلةُ قنديلِ البحرِ من الحيواناتِ الرخويةِ، يشبهُ جسمُها كيساً فارغاً، وتعيش عادةً قربَ سطحِ البحارِ، حيث تسيِّرها التياراتُ البحريَّةُ وتتقاذفُها الأمواجُ، ويراوحُ حجمُها من بضعةِ مليمتراتٍ إلى الأنواعِ الضَّخمةِ التي يزيدُ قطرُها على المترَينِ.

أمَّا القنديلُ الحزينُ؛ فقدْ كانَ طولُهُ نحوَ عشرةِ سنتمتراتٍ، ولم يكنْ يشعرُ بالسَّعادةِ التي يشعرُ بها أقرانُهُ القناديلُ.

لم يعدْ قنديلُ البحرِ الرّخويُّ الحزينُ مثلَ باقي القناديلِ البحريةِ الشهيرةِ؛ فالضَّوءُ الذي ينبعثُ منه أصبحَ قاتماً، كما أنَّهُ لم يعدْ مثلَ السّابقِ محطَّ اهتمامِ غيرِهِ من مخلوقاتِ البحرِ، ولا سيما أقرانِهِ القناديلِ الجميلةِ؛ فقدْ كانَ يفضِّلُ العيشَ في مكانٍ عميقٍ، بعيداً عن سطحِ البحرِ؛ حتى أرهقَ ضوءه، وبهتَ لاضطرارِهِ البقاء مضيئاً على الدَّوامِ.

ضوءُ هذا القنديلِ صارَ يضعفُ يوماً بعدَ يومٍ حتى اختفَى تماماً، وأصبحَ يعرفُ بين أقرانِهِ بأنَّهُ قنديلُ البحرِ المظلم، فشعرَ أنَّ جميعَ القناديلِ باتت تنظرُ إليهِ باستغرابٍ؛ إذ إنَّ جميعَها صارت تتجنَّبُ الاقترابَ منه خشيةَ أن يُصابَ أحدُها بالعدوَى فيفقدُ ضوءَهُ مثلهُ.

شاعَ اعتقادٌ بأنَّ القنديلَ المعتمَ أصيبَ بمرضٍ نادرِ الحدوثِ؛ لكنَّهُ معدٍ وخطيرٌ، واجتمعتِ القناديلُ وقرَّرَتْ أنْ يبقَى القنديلُ «المريضُ» في مكانٍ بعيدٍ، ولا يقتربُ منه أحدٌ على الإطلاقِ؛ لكنَّ القنديلَ لم يقبلْ بهذا الحكمِ، واعتبرَهُ حكماً ظالماً بحقِّهِ.

وقالَ للقناديلِ: عوضاً عن عزلي في مكانٍ بعيدٍ بعيدٍ؛ لماذا لا تساعدونَني لأشفَى من مرضي؟

فكَّرَ أحدُ القناديلِ الأذكياءُ، ودارَ بينَهما حوارٌ:

ـ منذُ متى لم تصعدْ إلى سطحِ الماءِ؟

ـ منذُ زمنٍ بعيدٍ؛ لأنني أخشَى الأضرارَ التي تصيبُ كثيراً من القناديلِ، وخاصّةً مع وجودِ مراكبَ متحركةٍ، وزيوتٍ، وموادَّ فاسدةٍ تُلقَى في البحرِ.

ـ هذا يعني أنَّكَ لم تتعرضْ لضوءِ الشَّمسِ مباشرَةً منذُ فترةٍ طويلةٍ، وربما يكونُ هذا سببَ فقدانِكَ للضَّوءِ والإشعاعِ.

قالَ قنديلٌ آخرُ: أنا أعرفُ مكاناً جميلاً آمناً ونظيفاً، ولا تقتربُ منه المراكبُ، يقعُ خلفَ صخورٍ عاليةٍ. ما رأيُكَ أن نذهبَ إليه معاً؟

فرحَ القنديلُ «المريضُ»؛ لأنَّ القناديلَ الأخرى بدأت تهتمُّ بأمرِهِ، فتورَّدَ وجهُهُ.

وفي الصَّباحِ الباكرِ؛ ألقتْ أشعَّةُ الشَّمسِ نورَها على وجهِهِ المتورّدِ، وعادَ متشبِّعاً بنورِ الشَّمسِ ليضيءَ ظلامَ قاعِ البحرِ، ويشاركَ أقرانَهُ الحياةَ بسعادةٍ من جديدٍ.

٣٤ ـ دجاجةُ البحرِ: المفترسةُ الجميلةُ

دجاجةُ البحرِ، أو سمكةُ التنِّينِ؛ مخلوقةٌ جميلةٌ، شكلُها مثلُ عصفورٍ غرّيدٍ يطيرُ، تشبهُ قطعةً فنّيةً صاغَها فنّانٌ ماهرٌ، تتميَّزُ بزعانفِها المبهرجةِ الطَّويلةِ، تسبحُ بخفَّةٍ ونعومةٍ، وتبدو هادئةً مسالمةً، إلّا أنَّها في الحقيقةِ شرسةٌ وسامةٌ وخطيرةٌ جداً.

ورغمَ قوَّتِها وخطرِها وامتلاكِها للسّمِّ؛ فإنَّها لا تؤذي أحداً، ولا تستخدمُ قوَّتَها إلا للدِّفاعِ عن نفسِها، أو عندَ شعورِها بالجوعِ.

عندما تريد الإمساكَ بفريستِها تلجأُ إلى التَّمويهِ والخداعِ والمباغتةِ، حيثُ تمرُّ الفريسةُ المسكينةُ قربَها دونَ أن تدري أنَّها جاءتْ إلى حتفِها بنفسِها، فتصيدُها بسهولةٍ؛ لأنَّها لا تظهرُ بسهولةٍ؛ إذ تختفي بين أشكالٍ من المرجانِ الملوَّنِ الذي يشبهُ شكلَها الجميلَ.

وقبلَ أن تدركَ الفريسةُ ما حدثَ؛ تكونُ قد أصبحتْ لقمةً سائغةً في فمِ هذهِ السَّمَكةِ الجميلةِ.

وبما أنَّ سمكةَ التنِّينِ تعيشُ عادةً في الشِّعابِ المرجانيَّةِ والشُّقوقِ الصَّخريَّةِ، فتكونُ سمكةً صعبةَ الاصطيادِ، ومن النّادرِ أنْ يتمَّ صيدُها خلالَ عمرِها الطَّويلِ الذي يمتدُّ نحو (١٥) سنةً، كما أنَّ طعمَها لذيذٌ.

لكنَّ الصيادينَ يفضِّلونَ أنْ تبقَى حيَّةً بعدَ صيدِها؛ لأنَّ قيمتَها تزدادُ كثيراً عندما يتَّخذُها النّاسُ للزِّينةِ، ومن أسمائِها: سمكةُ الأسدِ، وسمكةُ الروميّ، ودجاجةُ البحرِ.

وفي يومٍ قرَّرتْ سمكةُ التنِّينِ أنْ تخرجَ من الشِّعابِ المرجانيَّةِ؛ لتتباهَى بشكلِها الرّائعِ المدهشِ، فجمالُها ـ كما توهَّمتْ ـ ضائعٌ في أحضانِ الشِّعابِ المرجانيَّةِ الملوَّنةِ الزّاهيةِ.

فمضتْ في طريقِها، وكلَّما توغَّلتْ في البحرِ أكثر، كانت تلفتُ الأنظارَ إليها أكثرَ وأكثرَ.

كلُّ الأسماكِ تقول: ما أجملَها! ما أبهاها! ما أروعها!

وفي أثناءِ سباحتِها وتخايلِها، دخلتْ سمكةُ التنِّينِ منطقةً محظورةً؛ حيث وصلتْ إلى موطنِ سمكِ (الراي) اللاسعِ، وهي من الأسماكِ القويَّةِ المفترسةِ.

ومن سوءِ حظِّ هذهِ السَّمَكةِ الجميلةِ أنَّ سمكةَ (الراي) لا ترَى فريستَها؛ لأنَّ عيونَها في مكانٍ معاكسٍ لفمِها، وهي تعتمدُ في الصَّيدِ على حاسَّةِ الشَّمِّ، مثل القرشِ تماماً.

شمَّتْ إحدَى سمكاتِ (الراي) رائحتَها الشهيةَ، ولم تكنْ قدْ ذاقتْ من قبلُ طعمَ هذهِ السَّمَكةِ اللذيذةِ الطَّيِّبةِ الرّائحةِ.

كانتْ سمكةُ التنّينِ تسبحُ وهي تتبختَرُ؛ فخورةً بشكلِها الجميلِ، ومزهوةً بنظراتِ الأسماكِ من حولِها. فجأةً؛ انقضَّتْ عليها سمكةُ (الراي) بأسنانِها القويّةِ؛ التي بإمكانِها أنْ تسحقَ صدفةً ضخمةً.

واستقرَّتْ سمكةُ التنِّينِ الجميلةُ في بطنِ (الراي) دونَ أن تتمكَّنَ من الدِّفاعِ عن نفسِها؛ فقدْ شغلَها شكلُها الجميلُ عن حمايةِ نفسِها من الخطرِ.

٣٥ ـ الحبارُ العملاقُ وحوتُ العنبرِ

عاشَ الحبارُ العملاقُ وحيداً في أعمقِ حفرةٍ في المحيطِ، ولم يكنِ الضوءُ يصلُ إلى المكانِ الذي يستقرُّ فيه أبداً، فكان دائمَ العيشِ في ظلامٍ دامسٍ، ومن المشهورِ أنَّ الحبارَ العملاقَ أكثرُ سكّانِ المحيطِ غموضاً بشكلِهِ الغريبِ وطبعِهِ العجيبِ، فرأسُهُ ينتهي بما يشبهُ منقارَ الببغاءِ، وجسمُهُ يشبهُ الطوربيدَ، وأطرافُهُ طويلةٌ تنتهي بمصّاصاتٍ يستخدمُها في القبضِ على فريستهِ وعصرِها. إنَّهُ يفترسُ أيَّ شيءٍ دونَ رحمةٍ؛ لكنَّهُ يخشَى حوتَ العنبرِ؛ عدوَّهُ اللَّدود.

والحبارُ العملاقُ من فصيلةِ الرخويّاتِ مثلُ الأخطبوطِ، يشبهُهُ شبهاً كبيراً ما عدا في الحجمِ الذي يصلُ إلى ثمانيةَ عشرَ أو عشرينَ أو ثلاثينَ متراً.

ومنطقةُ حياتِهِ المفضَّلةُ في الأعماقِ، ونادراً ما يظهرُ على سطحِ الماءِ، يتحرَّكُ بنفسِ الطَّريقةِ التي تتحرَّكُ بها الطّائرةُ النفّاثةُ، فيقذفُ أمامَهُ دفعاتٍ كبيرةً من الماءِ عن طريقِ جهازٍ ماصٍّ، وعندما يكون عليهِ أنْ يختبرَ قوَّتَهُ أمامَ حوتِ العنبرِ ـ عدوِّهِ اللَّدودِ والتَّقليديّ ـ فإنَّهُ يقذفُ مخزونَهُ من الأسلحةِ السرِّيَّةِ، ومن بينِها تيارُ الحبرِ الشَّهيرُ الذي يغطّي به انسحابَهُ.

وهو متعدِّدُ الألوانِ، غيرَ أنَّ هذا الحبارَ الذي نروي قصَّتَهُ لونُهُ أحمرُ، لكنَّ لونَهُ لا يظهرُ بسببِ الظَّلامِ الدّامسِ.

وفي صراعِ أقرانِهِ مع حوتِ العنبرِ؛ فإنَّهم يخرجونَ مهزومينَ في كلِّ مرَّةٍ عادةً، معَ أنَّهم

يقذفونَ أحبارَهم في الماءِ؛ فيتحوَّلون بذلكَ إلى أجسامٍ معتمةٍ فلا يعودُ يراها بسهولةٍ رغمَ قدرتِهِ على الرؤيةِ في الأعماقِ.

لكنَّ هذا الحبارَ الأحمرَ لم يكنْ يخرجُ من حفرتِهِ المظلمةِ إلا نادراً جداً، فطعامُهُ غالباً ما يمرُّ قربَهُ فيلتقطُهُ.

وإذا تأخَّرَ الطَّعامُ وأصابَهُ الجوعُ ولم يصبرْ على آلامِهِ؛ اضطرَّ للخروجِ من محبسِهِ بحثاً عن غذاءٍ.

وفي أحدِ هذهِ الأيامِ النادرةِ صادفَ الحبارُ العملاقُ حوتَ العنبرِ، وهو حيوانٌ بحريٌّ ضخمٌ طولُهُ قريبٌ من طولِ الحبارِ العملاقِ، وسمّيَ بحوتِ العنبرِ لأنَّ منه تُستخرجُ مادّةُ العنبرِ الشهيرةُ التي تصنعُ منها العطورُ.

وهذا الحوتُ الأنيقُ الشَّكلِ والمخيفُ المرعبُ في وقتٍ واحدٍ يعيشُ في المحيطاتِ، ويأكلُ ما يشاءُ من مخلوقاتِ البحرِ، وهو أيضاً مثلُ الحبارِ العملاقِ يفضِّلُ الأعماقَ لصيدِ طعامِهِ المفضَّلِ، أي: الحبارِ العملاقِ.

اقتربَ الحوتُ العملاقُ ـ ولونُهُ أسود ـ من الحبارِ الأحمرِ العملاقِ بثقةٍ وثباتٍ، وقبلَ أنْ تنشبَ بينَهما المعركةُ، قالَ العملاقُ الأحمرُ للعملاقِ الأسودِ:

أنا عادةً لا أخرجُ من حفرتي وأترك الظَّلامَ الذي أحبُّه؛ حتى لا ألتقيَ بك، فنحنُ عدوّان تاريخيّان، فما رأيُكَ أن نتصالحَ؟

ضحكَ الحوتُ ضحكةً قويَّةً اهتزَّتْ بسببِها أرجاءُ المحيطِ، وهرعتِ الأسماكُ والكائناتُ البحريَّةُ إلى بيوتِها في كلِّ اتجاهٍ.

قالَ الحوتُ بعدَ أنْ صدَّعَ رأسَ الحبارِ بضحكتِهِ الرنّانةِ: لو تصالحنا فماذا سآكلُ بعدَ اليومِ؟!

قالَ الحبارُ: يكفيكَ ما أكلتَ من آبائي وأجدادي؛ لنعلنَ بيننا هدنةً علَّها تنهي حربَنا الضَّروسَ التي لا تنتهي.

عادَ حوتُ العنبرِ يضحكُ بلا انقطاعٍ، ثمَّ قال:

لا بأسَ! سوفَ آكلُكَ أولاً، ثمَّ أفكِّرُ باقتراحِكِ.

لم يكنِ الحبارُ اليومَ يريدُ الهربَ، ولم يكنْ يريدُ أنْ يستخدمَ أطرافَهُ ولا أدواتِهِ السرِّيَّةَ التي يستخدمُها عادةً للفرارِ من أمامِ الحوتِ المرعبِ، فقرَّرَ شيئاً غريباً؛ قفزَ نحوَ فمِ الحوتِ فجأةً بسرعةٍ مباغتةٍ، ولم يتركْ لحوتِ العنبرِ فرصةً للتَّفكيرِ أو للحركةِ، بصقَ الحبارُ الحبرَ الذي يختزنُهُ منذُ فترةٍ طويلةٍ في قلبِ حوتِ العنبر، وفاضَ الحبرُ في أحشاءِ الحوتِ حتى اختنقَ.

مشى الحبارُ مزهواً بإنجازِهِ، وقرَّرَ أن لا يعودَ بعدَ اليومِ إلى حفرتِهِ المظلمةِ.

٣٦ ـ نجمةُ البحرِ تبحثُ عن قمرٍ

قالوا لها: إنَّ اسمَها نجمةُ بحرٍ، ومن يومِ ولادتِها وهم ينادونَها بهذا الاسمِ.

تعرَّفتْ خلالَ طفولتِها على كثيرٍ وكثيرٍ من نجومِ البحرِ الصغيرةِ والعملاقةِ بكلِّ الأشكالِ والألوانِ والأحجامِ.

ومن النُّجومِ ما يشبهُها، ومنها ما يختلفُ عنها؛ لكثرةِ أنواعِ النُّجومِ وتعدُّدِ أصنافِها.

وذات مساءٍ؛ طافتِ النَّجمةُ فوقَ سطحِ الماءِ، وكانَ القمرُ بدراً منيراً يملأُ الأفقَ نوراً وضياءً.

والقمرُ أجملُ ما يكونُ عندما يكونُ بدراً كاملاً؛ كأنّهُ ابتسامةٌ تشرقُ في ليلٍ سعيدٍ.

ألقتِ النَّجمةُ الملساءُ جسدَها النّاعمَ الجميلَ على سطحِ الماءِ، ورفعتْ عينيها نحوَ السَّماءِ بكبرياءٍ، فكانَ المنظرُ بديعاً، مليئاً بالجمالِ والبهاءِ والغنجِ والدَّلالِ. تأمَّلتِ النَّجمةُ الحالمةُ القمرَ مدَّةً طويلةً.

كان خيالُها يطيرُ، يطير، ويسرح مُع الغيومِ الخفيفةِ إلى أبعدِ نقطةٍ في الفضاءِ.

رأتْ حولَ القمرِ نجوماً متلألئةً هنا وهناك، وفي كلِّ الأفقِ.

سألتْ سمكةٌ تمرُّ أمامَها بخفَّةٍ ورشاقةٍ: ما هذهِ الأشكالُ اللامعةُ في السَّماءِ أيتها السَّمَكةُ الحسناءُ؟

قالتْ لها السَّمَكةُ بكلِّ لطفٍ، وقد أدركتْ أنَّ النَّجمةَ لا تزالُ يافعةً صغيرةً في السِّنِّ، وأنَّها من سكّانِ الأعماقِ، ولم ترَ مثلَ هذا المشهدِ البديعِ من قبلُ:

هذا الكبيرُ الأبيضُ المنيرُ ـ يا نجمتي الحلوةَ ـ يسمَّى القمرُ، وشكلُهُ اليومَ ضخمٌ وجميلٌ يسرُّ النّاظرينَ، ومن حولِهِ نجومٌ لامعةٌ، وهو في كلِّ يومٍ له حالٌ؛ يكونُ يوماً مثلَ خيطٍ رفيعٍ نصفَ دائرةٍ، ويكبرُ يوماً بعدَ يومٍ، وبعدَ أسبوعينِ تقريباً يصبحُ كاملاً، ثمَّ يعودُ يصغرُ ويصغرُ حتى يصبحَ مثلَ خيطٍ كما كانَ، ويختفي من بعدِها ليلةً أو ليلتينِ، ثمَّ يعودُ خيطاً رفيعاً، وهكذا تدورُ دوائرُ القمرِ، ثمَّ مضتِ السَّمَكةُ في سبيلِها.

تعجَّبتِ النَّجمةُ وقالتْ: أنا نجمةٌ في البحرِ، وهذهِ نجومٌ في السَّماءِ، وهذا يعني أنَّنا مثلُ بعضِنا، وربما كنتُ أنا في يومٍ من الأيّامِ نجمةً في السَّماءِ قبل أن أقعَ وأسقطَ على البحرِ، ربما وقعتُ لأني لم أكنْ مثبَّتةً بشدَّةٍ على صفحةِ السَّماءِ.

وعندَما سقطتُ انطفأَ ضوئي في الماءِ، وظلَّ الجميعُ يسمّونَني نجمةً؛ لكنْ دونَ بريقٍ.

فكَّرتِ النجمةُ من جديدٍ، وقالتْ بعدَ تفكيرٍ طويلٍ:

نعم! لكنْ ربما كنتُ أساساً من البحرِ، ولستُ نجمةً سماويَّةً، بل بحْريةُ الأصلِ، ولو صحَّ هذا الافتراضُ، وأنا أعرفُ الكثيرَ الكثيرَ من النُّجومِ البحريَّةِ، لو صحَّ هذا؛ لماذا ليسَ لدينا نجومٌ لامعةٌ مثلَ نجومِ السَّماءِ، ولا يوجدُ عندَنا قمرٌ منيرٌ مثلَ قمرِ السَّماءِ؟

ومنْ يومِها ونجمةُ البحرِ تبحثُ في أعماقِ البحارِ والمحيطاتِ عن قمرٍ تسمّيهِ (قمر البحرِ) يشبهُ قمرَ السَّماءِ، قد يكونُ غرقَ في الماءِ منذُ دهورٍ طويلةٍ، ولم يعدْ أبيضَ منيراً مثلَ

ذلكَ القمرِ الجميلِ، وانطفأَ كما تنطفىءُ الشمعةُ؛ لكنَّها رغمَ بحثِها الطَّويلِ لم تجدْ قمراً في البحرِ يوماً، وباتتْ تعتقدُ أنَّهُ ربما مع مرورِ الأيّامِ أصبحَ مغموراً برمالِ قاعِ البحرِ.

٣٧ ـ القرشُ البهلوانُ المدهشُ

كانَ القرشُ الضَّخمُ بشكلِهِ الجميلِ الأنيقِ وأنيابِهِ البيضاءِ اللّامعةِ الناصعةِ البياضِ يضحكُ على الدَّوامِ بلا انقطاعٍ.

وكانَ يبدو على غيرِ شاكلةِ أقرانِهِ القروشِ الذين يرهبونَ الناظرينَ إليهم، فيهربُ الجميعُ من أمامِهم، متجنِّبينَ نظراتِهم وشكلَهمُ المرعبَ، أمَّا هذا القرشُ المدهشُ فلمْ يكنْ مرعباً على الإطلاقِ، يوزِّعُ ابتساماتِهِ وضحكاتِهِ على جميعِ سكّانِ البحرِ من أسماكٍ صغيرةٍ وعملاقةٍ، وحتى الوحوش الخطيرة.

ورغمَ أنَّهُ أشرسُ الأسماكِ بلا منازعٍ، ويتربَّعُ على قمَّةِ الأسماكِ الشَّرسةِ، فإنهُ كانَ لطيفاً أكثرَ مما يتوقَّعُ الجميعُ.

وفي صباحِ كلِّ يومٍ، كانَ القرشُ الضَّخمُ الضّاحكُ المدهشُ يقومُ بهوايتِهِ المفضَّلةِ، وهي السّباحةُ العنيفةُ، يصعدُ إلى الأعلى حتى تحرقَهُ حرارةُ الشَّمسِ وتصيبُ جسدَهُ مباشرةً، ثمَّ يغوصُ في الأعماقِ بخفَّةٍ، ثمَّ يعومُ من جديدٍ نحو سطحِ البحرِ، ثمَّ الغوصُ مرةً أخرى بكلِّ قوةٍ قاصداً الأعماقَ السَّحيقةَ وكأنَّهُ بهلوانُ البحرِ.

كان يفرحُ ويضحكُ وهو يرى الأمواجَ الكثيرةَ والعملاقةَ تتكوَّنُ من حولِهِ كلَّما عامَ وكلَّما غاصَ.

وأجملُ اللَّحظاتِ عندَهُ عندما يسقطُ مثلَ صاروخِ (طوربيد) في أعماقِ البحرِ، ثمَّ يرتطمُ

بالرَّملِ، فيتناثرُ الرَّملُ في كلِّ مكانٍ، حتى يشكّلَ زوبعةً رمليَّةً هائلةً تختلطُ بماءِ أعماقِ البحرِ، وتمضي فترةُ استراحةِ تأملٍ قصيرةٍ، حتى تهدأَ ثورةُ الرِّمالِ، وتعودَ إلى مكانها، ويعودَ الماءُ صافياً شفّافاً من جديدٍ، فيعودَ هو إلى لعبتِهِ المفضَّلةِ.

وفي يومٍ كانتِ السَّماءُ مليئةً بالغيومِ، وكانتِ الشَّمسُ غائبةً لا يظهرُ منها شيءٌ، وكانَ الظَّلامُ يعمُّ المكانَ فوقَ البحرِ وفي أعماقِهِ.

لكنَّ القرشَ المدهشَ لم يعبأْ بكلِّ هذا الظَّلامِ، وأرادَ أنْ يمارسَ لعبتَهُ المفضَّلةَ، وهوايتَهُ المحبَّبةَ.

صارَ يصعدُ إلى الأعلى بكلِّ عنفٍ، ثمَّ يسقطُ من صفحةِ الماءِ العليا إلى الأعماقِ السَّحيقةِ ملقياً جسدَهُ الثَّقيلَ، فيرتفعُ الماءُ وترتجُّ الأعماقُ، وضحكتُهُ مجلجلةٌ في الأمكنةِ كلِّها.

كانَ القرشُ يرمي نفسَهُ في العمقِ، وهو لا يرَى أمامَهُ، وفجأةً؛ ارتطمَ بصخرةٍ لم ينتبهْ لوجودِها، وكانَ الارتطامُ على جانبِ جسدِهِ، ولم يكنْ على رأسِهِ مباشرةً؛ لكنَّهُ ارتطمَ بقوَّةٍ شديدةٍ سمعَ صوتَها كلُّ كائناتِ البحرِ، وخافَ منها سكّانُ المكانِ والسّاكنينَ حتى مسافات بعيدة.

القرشُ المدهشُ خرجَ من هذهِ الضّربةِ الموجعةِ ضاحكاً باسماً كعادتِهِ، مثلَما هو دائماً، إلّا أنهُ قرَّرَ التوقُّفَ عنِ القيامِ بلعبتِهِ اليوميَّةِ؛ حتى تنقشعَ غيومُ السَّماءِ، ويعودَ ضوءُ الشَّمسِ ليتسلَّلَ متغلغلاً في الماءِ.

أدركَ أنَّ الضَّربةَ الأولى كانتْ سليمةً، ومن يعلمُ ماذا سيحدثُ بعدَ الضَّربةِ الثّانيةِ؟!

٣٨ ـ حصانُ البحرِ وحصانُ البرِّ

في بحرٍ عميقٍ بعيدٍ، عاشَ حصانُ بحرٍ في سعادةٍ بالغةٍ وأمانٍ وسلامٍ مع أقرانِهِ الأحصنةِ، وكانَ يحبُّ القراءةَ كثيراً، وخاصّة عنِ الحيواناتِ التي لا تعيشُ في الماءِ.

علمَ أنَّ على اليابسةِ نوعاً من الحيواناتِ يشبهُهُ في بعضِ الجوانبِ إلى حدٍّ بعيدٍ؛ لكنَّهُ يتنفَّسُ الهواءَ، وقرأَ أيضاً أنَّ ذلكَ الحصانَ وخاصّةً الحصان العربيّ، جميلُ الشَّكلِ مثلُ حصانِ البحرِ. وليسَ ذلكَ فحسبُ، بل هو من أجملِ الكائناتِ البريَّةِ، كما أنَّ حصانَ البحرِ من أجملِ الكائناتِ البحريَّةِ على الإطلاقِ.

وشعرَ الحصانُ البحريُّ بالغيرةِ الشَّديدةِ منه؛ كيفَ يكونُ على الأرضِ من هو أجملُ منه، وكانَ يعتقدُ أنَّهُ أجملُ الكائناتِ.

قرأَ الحصانُ البحريُّ عن نفسِهِ ما يقولُهُ الإنسانُ عنه من أنه نوعٌ من الأسماكِ البديعةِ، غيرَ أنه لم يكن يرى نفسَهُ شبيهاً بالأسماكِ ـ كما يقولُ الإنسانُ ـ وعلمَ أيضاً أنَّ أهميَّتَهُ للإنسانِ ليسَ كسمكةٍ يأكلُها، بلْ كشكلٍ جميلٍ يشبهُ الحصانَ الذي يعيشُ على اليابسةِ، وعلمَ أيضاً أنَّ له بينَ النّاسِ مكانةً كبيرةً، فهمْ يحتفظونَ بهِ في بيوتِهم بأحواض زجاجيّةٍ تصنعُ له وللأسماكِ الجميلةِ بشكلٍ عامٍّ.

لكنَّ كثيراً من النّاسِ يفضّلونه على جميعِ الأسماكِ، حيثُ يبدو في شكلِهِ البديعِ وكأنّهُ يرتدي ثياباً غايةً في الرَّوعةِ والجَمالِ، بسحرِهِ الجذّابِ وألوانِهِ البديعةِ.

شعرَ الحصانُ البحريُّ بزهوٍ وغرورٍ أكثرَ؛ لكنَّهُ ما زالَ غاضباً من فكرةِ وجودِ حصانٍ بريٍّ أجمل منه، فهو وأقرانُهُ من أجملِ المخلوقاتِ، وقد غضبَ أكثرَ؛ لأنَّ الإنسانَ يأسرُ أهلَهُ وأقاربَهُ من كلِّ الأنواعِ الجميلةِ لكي يحتفظَ بها في بيتِهِ أو قصرِهِ.

ومن طرائفِ ما اكتشفَهُ هذا الحصانُ الذكيُّ المغرورُ أنَّ في الدُّنيا عشراتِ الأنواعِ منه، تصلُ إلى أكثرَ من ثلاثينَ نوعاً منتشراً في محيطاتِ وبحارِ العالمِ.

وأرادَ هذا الحصانُ البحريُّ يوماً أن يستكشفَ عالمَ الإنسانِ، وأن يرَى الأحصنةَ البريَّةَ بنفسِهِ، لكنْ كيفَ السَّبيلُ، ولا يمكنُهُ التَّنفسُ خارجَ الماءِ، والعيشُ على اليابسةِ في الهواءِ الطَّلقِ؟

قرَّرَ المغامرةَ بنفسِهِ، والصُّعودَ إلى سطحِ الماءِ، والاقترابَ من الشّاطئِ؛ لعلَّهُ يحظَى بشرفِ رؤيةِ حصانٍ بريٍّ، معتقداً أنَّ تميّزَهُ بألوانِهِ الزّاهيةِ الجذّابةِ التي تضفي عليه جمالاً خلاباً وتميّزُهُ بمقدرةٍ فائقةٍ على الاختفاءِ والتمويهِ، سيجعلُهُ بعيداً عنِ الأنظارِ وبمأمنٍ من الإنسانِ عندما يبدّلُ لونَهُ ليضاهيَ ما حولَهُ بحيثُ تصعبُ رؤيتُهُ وتمييزُهُ بينَ الأعشابِ والحشائشِ البحريَّةِ.

توجَّهَ الحصانُ البحريُّ إلى الأعلى بهدوءٍ كبيرٍ وثقةٍ بالغةٍ بحركاتٍ تشبهُ حركاتِ الخيولِ العربيَّةِ الرشيقةِ، إلّا أنها حركاتٌ بطيئةٌ.

وما أنْ وصلَ الحصانُ الجميلُ قريباً من صفحةِ الماءِ، وما كادَ يخرجُ رأسَهُ للبحثِ عن حصانٍ بريٍّ؛ حتى وقعَ في شباكِ صيّادٍ.

حاولَ الحصانُ البحريُّ أن يموِّهَ نفسَهُ بشباكِ الصيّادِ؛ لكنَّهُ أدركَ رغمَ كلِّ محاولاتِهِ التي

باءتْ بالفشلِ، أنه واقعٌ لا محالةَ في الأسرِ، ولا مجالَ للخروجِ من الشباكِ الذي وقعَ فيهِ، وندمَ الحصانُ البحريُّ على تهوّرِهِ في وقتٍ لم يعدْ ينفعُ فيه النَّدمُ.

سادساً

مغامراتُ نعسانَ الكسلانِ في الصيفيةِ

٣٩ ــ نعسانُ يريدُ العملَ

٤٠ ــ مثلَّجاتُ نعوس

٤١ ــ نعوسُ: حارسُ مرمى

٤٢ ــ نعسانُ: المنقذُ الشُّجاعُ

٤٣ ــ نعسانُ وبائعُ الوردِ

٣٩ ـ نعسانُ يريدُ العملَ

انتهت اختباراتُ اليومِ الأخيرِ في المدرسةِ، وبدأتِ العطلةُ الصَّيفيَّةُ، وأخبرَ نعسانُ والديهِ أنهُ يريدُ أنْ يعملَ في أشهرِ الصَّيفِ؛ لكي يملأَ وقتَ الفراغِ بشيءٍ مفيدٍ، بدل الجلوسِ في المنزلِ معظم الوقتِ، والبقاءِ أمامَ التلفزيونِ، أو اللَّعبِ بالأجهزةِ الإلكترونيَّةِ المتعدِّدةِ.

فرحَ أبو نعسانَ بهذهِ الفكرةِ، وبعدَ التَّشاورِ مع زوجتِهِ وافقَ الأبُ والأمُّ معاً، وسألا ابنَهما عنِ العملِ الذي يريدُ أنْ يعملَ به، وما هو نوعُ العملِ الذي يناسبُ شاباً صغيراً انتهى للتوِّ من الصفِّ السّابعِ.

كانَ نعسانُ يريدُ الاعتمادَ على نفسِهِ، ولا يريدُ أنْ يساعدَهُ أحدٌ في البحثِ عن عملٍ، فقال:

في الصَّباحِ؛ شاهدتُ إعلاناً في المكتبةِ القريبةِ من بيتِنا في نهايةِ الشارعِ، يطلبُ صبيّاً للعملِ، وقد سألتُ صاحبَ المكتبةِ، فرحَّبَ كثيراً بأنْ أعملَ عندَهُ؛ لكنَّهُ حذَّرني من أنَّ العملَ في المكتبةِ متعبٌ، وأنَّ عليَّ أنْ أحضرَ في وقتٍ مبكرٍ، وأنْ أنقلَ الكتبَ وأوزِّعَ الصُّحُفَ، وأنظِّفَ الأرضَ يومياً، فطلبتُ منه أنْ يمهلَني حتى يوم غدٍ؛ لأنَّ اليومَ هو آخرُ يومٍ لي في المدرسةِ.

وعندما انتهيتُ من الامتحانِ، وكنتُ في طريقِ عودتي إلى البيتِ، مررتُ بالمكتبةِ، واتفقتُ مع صاحبِها، وغداً إنْ شاءَ اللهُ سأبدأُ العملَ.

قالَ الأبُ ضاحكاً: رائع! رائع يا نعوس! هذا يعني أنَّكَ رتَّبتَ كلَّ الأمورِ بمفردِكَ دونَ الحاجةِ إلينا، وقبلَ أن تستأذنَنا. على أيِّ حالٍ لا بأس! على بركةِ اللهِ.

وتابعَ الأبُ بعدَ أنْ رسمَ على وجهِهِ علاماتِ الجديَّةِ: لكنْ لماذا لم تخبرْنا قبلَ أنْ تتَّفقَ معه يا نعوس؟

أجابَهُ نعسانُ بخجلٍ: آسفٌ يا أبي. لقدْ خشيتُ أنْ يتَّفقَ مع أحدٍ غيري، وأفقدَ هذهِ الوظيفةَ.

الأبُ: إجابة منطقية يا نعوس. جيد. لكنْ لم تقل لنا: هلِ اتفقتُمْا على قيمةِ الرّاتبِ الذي ستحصلُ عليهِ؟ وهل سيكونُ الرّاتبُ أسبوعياً أم شهرياً؟

نعسان: أخبرَني صاحبُ المكتبةِ أنهُ سيكونُ عملي في البدايةِ تجربةً لمدَّةِ يومينِ، وبعدَها يقرّرُ التَّفاصيلَ.

قالَ الأبُ مبتسماً: آه! في الحقيقةِ، معه حقٌّ بذلك، وعليك ـ إذاً ـ أنْ تقدّمَ له أفضلَ ما لديكَ.

كانتْ سعادةُ الأبِ كبيرةً بطفلِهِ الشّابِّ الصَّغيرِ؛ لكنَّهُ يعرفُ أنهُ كسولٌ بعض الشَّيءِ، ويحبُّ النَّومَ أكثرَ من النَّشاطِ والعملِ.

التفتَ الأبُ إلى يمينِهِ، وقالَ فخوراً بولدِهِ: صارَ ابنُكِ شاباً يا أمَّ نعسانَ، ويريدُ أنْ يعتمدَ على نفسِهِ. جيد. على بركةِ اللهِ، غداً إذاً سيكونُ بدءُ سجلِّ حياتِكَ العمليَّةِ. بالتَّوفيقِ يا نعوس.

وقفَ الابنُ معتدّاً بنفسِهِ، ثم رفعَ رأسَهُ وقالَ:

بما أني أصبحتُ من الشَّبابِ العاملينَ، أرجو أن لا تناديني بعدَ اليومِ بنعوس، أنا من الآن فصاعداً نعسان، نعسان وبس.

قالَ الأبُ والأمُّ بصوتٍ واحدٍ: كما تشاءُ يا «نعسان وبس».

وفي المساءِ؛ وفيما كانَ نعسانُ يتابعُ التلفزيونَ، قالَ له أبوهُ:

هيا يا نعسانُ إلى النومِ، عليكَ أنْ ترتاحَ لتكونَ نشيطاً في الصَّباحِ، كيلا تتأخَّرَ عنِ العملِ.

لكنّ نعسانَ كانَ يتابعُ فيلماً ممتعاً فقالَ لأبيهِ: عندما ينتهي الفيلمُ يا أبي، إنهُ فيلمٌ رائعٌ وجديدٌ، وهذه أوَّلُ مرةٍ يعرضونَهُ على التّلفزيونِ.

ذهبَ الأبُ والأمُّ إلى النَّومِ، وبقيَ نعسانُ حتى انتَهى الفيلمُ، ثم مضى الوقتُ ونعسانُ يقلّبُ محطاتِ التلفزيونِ، دونَ أنْ ينتبهَ إلى أنَّ اللَّيلَ قدِ انتصفَ، وأنَّه قضَى معظمَ اللَّيلِ بالسَّهرِ، وأدركَهُ النُّعاسُ، فنَامَ وهو جالسٌ على الكنبةِ.

وفي صباحِ اليومِ التَّالي فوجئتِ الأمُّ بأنَّ ابنَها لم ينمْ في سريرِهِ، وحاولتْ إيقاظَهُ؛ لكنَّهُ لم يستيقظْ بسهولةٍ.

قالَ نعسانُ لأمِّهِ: ليس عندي اليوم مدرسةٌ، دعيني أكملْ نومي.

قالتْ له أمُّهُ: أنسيتَ يا نعسانُ أنَّ عليكَ الذهابَ إلى المكتبةِ؟

عندما سمعَ نعسانُ هذه الجملةَ هبَّ من نومِهِ مذعوراً، وارتدَى ملابسَهُ بأقصَى سرعةٍ، ثمَّ خرجَ من المنزلِ دونَ أن يتناولَ فطورَهُ.

وعندما وصلَ إلى المكتبةِ وجدَ صاحبَها يقفُ عندَ بابِها ويراقبُ صبياً يكنسُ الرَّصيفَ.

اقتربَ نعسانُ وألقَى تحيَّةَ الصَّباحِ، وحاولَ دخولَ المكتبةِ، لكنَّ صاحبَ العملِ ظلَّ واقفاً عندَ البابِ موجِّهاً أصبعَهُ إلى زجاجِ المكتبةِ، مشيراً إلى إعلانٍ جديدٍ: (مطلوب صبي نشيط للعملِ).

لاحظَ نعسانُ أنهُ أضافَ كلمةَ (نشيط) إلى الإعلانِ في واجهةِ المكتبةِ، فقالَ صاحبُ المكتبةِ وهو يراقبُ الصبيَّ الذي كانَ ينظِّفُ المكانَ بنشاطٍ كبيرٍ:

من فاتَهُ اليومُ الأوَّلُ من العملِ لكسلِهِ؛ فإنَّ العملَ لا يحتاجُ إليهِ، ومن نامَ عن عملِهِ؛ فإنَّ هناكَ شخصاً آخرَ أحق بالعملِ منه.

وقبلَ أنْ يتفوَّهَ نعسانُ بكلمةٍ واحدةٍ، تابعَ صاحبُ المكتبةِ كلامَهُ قائلاً:

أنا أريدُ صبياً نشيطاً، ولا أريدُ صبياً كسولاً يأتي إلى العملِ متأخّراً؛ حتى إنه لم يسرِّحْ شعرَهُ. اذهبْ يا بنيّ، وفكّرْ بما قلتُ لكَ، وابحثْ عن عملٍ آخرَ يناسبكَ، واعلمْ أنَّ العملَ لن ينتظرَكَ حتى تأتيَ براحتِكَ، وأرجو أنْ تستفيدَ من درسِكَ الأوَّلِ في العملِ.

وعادَ نعسانُ إلى بيتهِ حزيناً، وهو يفكّر ماذا سيقولُ لأمِّهِ مبرِّراً فشلَهُ في اليومِ الأوَّلِ من العمل.

٤٠ ـ مثلّجاتُ نعوس

كانَ نعسانُ يسيرُ في الطَّريقِ وجبينُهُ يتصبَّبُ عرقاً من شدَّةِ الحرِّ. شاهدَ بائعَ مثلجاتٍ جوّالاً يركبُ دراجةً هوائيّةً، ويدفعُ بصندوقِ المثلَّجاتِ أمامَهُ.

أشارَ نعسانُ إلى البائعِ أنْ توقَّفْ، وبعدَ السَّلامِ عليهِ، طلبَ منه زجاجةَ ماءٍ شديدةَ البرودةِ.

قالَ له البائعُ: يا بني، خذْ. هذهِ زجاجةٌ متوسطةُ البرودةِ، فأنتَ صغيرٌ في السِّنِّ، والجوُّ حارٌّ جداً، والعرقُ يتصبَّبُ منكَ. لو شربتَ ماءً مثلَّجاً ستصابُ بالبردِ وتمرضُ، هذه برودتُها متوسّطةٌ، اشربْ باسمِ اللهِ.

غضبَ نعسانُ وقالَ له: هذا ليسَ شأنكَ، كيفَ تقولُ لي ما يجب أنْ أفعلَ وما لا أفعلُ؟ أنتَ لستَ وليَّ أمري، وأنا حرٌّ بما أفعلُ. هيا أعطني ماءً مثلَّجاً.

قالَ البائعُ: لنْ أبيعَكَ ماءً مثلجاً، ولو دفعتَ ثمنَهُ أضعافاً مضاعفةً، أخشى أن تمرضَ يا ولدي.

تأفَّفَ نعسانُ منه، وأخذَ الزُّجاجةَ لأنهُ كانَ يشعرُ بعطشٍ شديدٍ، وبعدَ أنْ شربَ وارتوَى وشعر بالرِّضا، ضحكَ بائعُ المثلَّجاتِ وقالَ له: هنيئاً مريئاً. لقدْ كانتْ شربةً طيبةً، ولو كانتْ مثلَّجةً كما طلبتَ لما شربتَها بهذا التلذُّذِ. قلِ: الحمدُ لله. ومعِ السَّلامةِ.

وفيما كانَ بائعُ المثلَّجاتِ يركبُ درّاجتَهُ ليمضيَ، ناداهُ نعسانُ بصوتٍ مرتفعٍ: انتظرْ، انتظرْ. ألا تريدُ أن تأخذَ فلوسَكَ.

ضحكَ بائعُ المثلَّجاتِ، وهزَّ رأسَهُ بالنَّفي وهو يقول: هذه هديةٌ مني إليك، بالهناءِ والشفاءِ.

فكَّر نعسانُ بأنها قد تكونُ تجربةً جميلةً وتجارةً رابحةً لو قامَ هو أيضاً ببيعِ المثلَّجاتِ، واعتقدَ أنه قد يكونُ عملاً ممتعاً ومسلياً ومفيداً، ويمكنُ أن يربحَ منه مالاً وفيراً.

وعندما رجعَ إلى بيتِهِ، عرضَ فكرتَهُ على أمِّهِ وأبيهِ، لكنَّ والديهِ لم يقتنعا على الإطلاقِ بهذهِ الفكرةِ. فهو لا يعرفُ كيفَ يبيعُ المثلَّجاتِ، وحذَّراهُ من حرارةِ الشمسِ.

قالا له: إنَّ من يبيعُ المثلَّجاتِ في الطَّريقِ يا نعوسُ أناسٌ شرفاءُ أقوياءُ أشداءُ، لا بدَّ من احترامِهِم وتقديرِهِم، فهم يعرِّضونَ أنفسَهم للخطرِ تحتَ الشَّمسِ طوالَ النَّهارِ في عملِهِمُ الشَّريفِ من أجلِ دريهماتٍ قليلةٍ؛ لكنَّ فائدتَهم كبيرةٌ على الناسِ، وخاصَّةً الذينَ يكونونَ في حالةِ عطشٍ شديدٍ، ويحتاجونَ للماءِ في وقتِ القيظِ والحرِّ.

فقالَ نعسانُ: وأنا أيضاً أريدُ أنْ أكونَ مثلَهم.

قالَ له الأبُ: لكنَّ هذا ممنوعٌ في القانونِ نعوس، ومن يبيعُ المثلَّجاتِ يجبُ أنْ يكونَ لديهِ تصريحٌ رسميٌّ، وأنتَ صغيرٌ ولن يسمحُوا لكَ أبداً.

قالَ نعسانُ: إذاً سأكتفي ببيعِ المثلَّجاتِ في الشّارعِ القريبِ، وبالنِّسبةِ للشَّمسِ، سأرتدي نظارةً شمسيَّةً، وسأحملُ مظلَّةً كبيرةً تقيني من أشعَّتِها.

لكنَّ الأبَ والأمَّ لم يقبلا بهذهِ الفكرةِ، إلّا أنهما وتحتَ إلحاحِ نعسانَ وإصرارِهِ؛ وافقا، بشرطِ أنْ يبقَى قريباً جداً من المنزلِ، وأن لا يبتعدَ عنِ الحيِّ.

وفي الصَّباحِ فتحَ نعوسُ حصَّالةَ نقودِهِ، وأخرجَ منها الكثيرَ من قطعِ النّقودِ الصَّغيرةِ الورقيَّةِ والمعدنيَّةِ، ثمَّ توجَّهَ إلى دكانٍ يقعُ في نهايةِ الشّارعِ، واشترَى منه مجموعةً من المثلَّجاتِ والماءِ والعصائرِ الباردةِ، ووضعَها في صندوقٍ مخصَّصٍ لذلك؛ لكي لا تذوبَ بسرعةٍ، ثمَّ حملَ الصُّندوقَ فوقَ رأسِهِ، ووضعَ فوقَ الصُّندوقِ مظلَّةً كبيرةً، وخرجَ ينادي «مثلّجات نعوس. . . مثلّجات نعوس. . . مثلّجات مثلجات».

مضى وقتٌ طويلٌ ونعسانُ يقطعُ الشّارعَ جيئةً وذهاباً من أوَّلِهِ إلى آخرِهِ، ثمَّ يعودُ من آخرِهِ إلى أوَّلِهِ. وقبلَ أنْ ينتصفَ النَّهارُ أُصيبَ نعسانُ بتعبٍ شديدٍ، وبدأتِ المثَلَّجاتُ تذوبُ وتتسرَّبُ من الصَّندوقِ نقطةً نقطةً على رأسِهِ.

سقطَ نعسانُ على الأرضِ بعدَما أصابَهُ إعياءٌ شديدٌ، وانقلبَ الصُّندوقُ على الرَّصيفِ، وسالتِ المثلَّجاتُ هنا وهناك، وأصبحتْ ماءً لزجاً مختلطَ الألوانِ.

والتفَّ النّاسُ من حولِهِ ونقلوهُ إلى بيتِهِ، وبعدَ أنْ حضرَ الطَّبيبُ، وتأكَّدَ الجميعُ أنَّ نعسانَ بحالةٍ صحيَّةٍ جيّدةٍ، وأنَّهُ لم يتعرَّضْ لضربةِ شمسٍ قويَّةٍ، طلبَ الطَّبيبُ من أمِّهِ وأبيهِ أنْ يتركاهُ لينامَ طويلاً.

ضحكتِ الأمُّ وضحكَ الأبُ من هذهِ المغامرةِ العجيبةِ، وحمدا اللهَ تعالى؛ لأنَّ ما أصابَ ابنهما نعسان كانَ أمراً بسيطاً، آملينَ أن يكونَ قد تعلَّمَ من هذهِ التَّجربةِ الفريدةِ.

٤١ ـ نعوسُ حارسُ مرمى

جلسَ نعسانُ يتابعُ على التلفزيونِ لعبةَ كرةِ قدمٍ حماسيَّةٍ. كانَ الفريقانِ يلعبانِ مباشرةً من إسبانيا، وكانا من أشهرِ الفِرقِ العالميَّةِ.

تابعَ نعسانُ المباراةَ بشغفٍ شديدٍ، وكانَ أكثرَ ما لفتَ اهتمامُ نعسانَ حارسا المرمَى على جانبَي الملعبِ، فصارَ يراقبُ باهتمامٍ تفاصيلَ اللَّعبِ قربَ المرمى، ويقارنُ بينَ الحارسَينِ، حيثُ أُعجبَ بجرأتِهما أمامَ الكراتِ التي كانت تتطايرُ عليهِما من كلِّ صوبٍ، وكانا يقفِزانِ من هنا وهناك، ويرميانِ نفسَيهِما على الكرةِ بكلِّ شراسةٍ وقوَّةٍ، ويقفزانِ في الهواءِ ليمسِكا بالكرةِ وهي تطيرُ بسرعةٍ خاطفةٍ. لم يكن نعسانُ مهتماً كثيراً بمنْ سيفوزُ بقدرِ اهتمامِه بحارسَي المرمى.

وعندَ انتهاءِ المباراةِ التي كانت تُنقَل مباشرةً، والتي كانَ نعسانُ يسجِّلُها على جهازِ التَّسجيلِ، قامَ بإعادةِ التَّسجيلِ، وصارَ يسرِّعُ المَشاهدَ حتى تصلَ الكرةُ إلى المرمى، عندها يبطِّىءُ المشاهدَ ويراقبُ طريقةَ دفاعِ الحارسِ عن مرماهُ.

وبعدَ تكرارِ المشاهدِ مرةً تلوَ المرةِ، دبَّتِ الحماسةُ في نفسِ نعسانَ، وقرَّرَ أن يكونَ حارسَ مرمى مشهوراً.

قالَ نعسانُ لأمِّهِ أنَّه يريدُ الذَّهابَ إلى النادي الرياضي في المنطقةِ؛ ليكونَ حارسَ المرمى في الفريقِ الأوَّلِ.

قالتْ له أمُّهُ: ما شاءَ اللهُ يا نعوس! حارسُ المرمى في الفرقةِ الأولى مرة واحدة؟!

قالَ بكلِّ ثقةٍ: نعم، وماذا في ذلك؟ لقدْ راقبتُ حارسَي مرمَى من أكبرِ الفِرقِ الكبرى في العالمِ، وتعلَّمتُ منهما الكثيرَ.

قالتْ له الأمُّ: شيءٌ جميلٌ جداً. إذاً هيا بنا إلى النادي الرِّياضيّ.

وصلتِ الأمُّ وابنُها إلى النّادي الرِّياضيّ، وتكلَّمتِ الأمُّ معَ المسؤولِ، وطلبتْ منه أنْ يسمحَ لنعسانَ باللَّعبِ مع أهمِّ فريقٍ لديهِ، قائلةً له: إنَّ ابني نعسانَ حارسُ مرمى ممتازٍ؛ فقدْ شاهدَ مباراةً عالميَّةً مهمَّةً، وتحمَّسَ لها كثيراً، جرِّبْهُ لتعرفَ مستواهُ.

فهِمَ المسؤولُ أن أمَّ نعسانَ تريدُ أن يدخلَ ابنُها النادي، وأنهُ بالكادِ يعرفُ بعضَ المهاراتِ النَّظريةِ؛ لكنَّهُ شجَّعهُ بحماسةٍ بالغةٍ قائلاً: جميلٌ جداً! وهذا ما نبحثُ عنه. نحنُ نريدُ حرّاساً محترِفينَ، سأتصلُ بالمدرِّبِ وأطلبُ منه إجراءَ اختبارٍ فوريٍّ لنعسانَ.

ثمَّ قالَ المسؤولُ: أيُّها البطلُ نعسانُ، هيا اذهبْ إلى الملعبِ الكبيرِ، ستجدُ المدرِّبَ (جمالاً)، عرِّفْهُ بنفسِكَ وأظهرْ له كلَّ مهاراتِكَ المتميِّزةِ.

وجدَ نعسانُ نفسَهُ في ملعبٍ مع كثيرٍ من الصِّبيانِ الذين هم في سنِّهِ، وعندما اقتربَ من المدرِّبِ جمالٍ، رحَّبَ به وأخبرَهُ أنَّ المسؤولَ اتَّصلَ به، وطلبَ منه أن يقفَ حارساً في المرمى، ثمَّ طلبَ من اللّاعبينَ الصِّغارِ أن يبدؤوا برمي الكرةِ داخلَ المرمى.

بذلَ نعسانُ كلَّ جهدِهِ، وكلَّ طاقةٍ ممكنةٍ. كانتِ الكراتُ تتطايرُ من أمامِهِ، بعضُها يطيرُ

خارجَ المرمى، وبعضُها يضربُ خشبةَ المرمى، ثمَّ يطيرُ خارجاً، وبعضُها يقعُ على رأسِهِ ويدِهِ وبطنِهِ، وبعضُها يقعُ في داخلِ المرمى.

قامَ نعسانُ بتجربةٍ جميلةٍ جداً، وعلمَ أن معرفةَ الشَّيءِ لا تغني عن تجربتِهِ، وأنَّ ليسَ كلُّ شيءٍ يمكنُ تعلُّمهُ دونَ اختبارِهِ عمليّاً، وقرَّرَ أنْ يتعلَّمَ من جديدٍ كيفَ يكونُ بالفعلِ حارسَ مرمى محترفاً.

٤٢ ـ نعسانُ: المنقذُ الشُّجاعُ

خرجَ نعسانُ يمشي في مساءٍ صيفيٍّ جميلٍ، بعدما قضَى فترةً طويلةً من النَّهارِ بالنَّومِ، مثلَ عادتِهِ في العطلةِ الصَّيفيَّةِ، فلا عملَ لديهِ ولا دراسةَ.

اشترى نعسانُ كيسَ بذوراتٍ، وجلسَ على المقعدِ الخشبيِّ في الحديقةِ المجاورةِ لمنزلِهِ.

وفيما كانَ نعسانُ يجلسُ مستمتعاً بالطَّبيعةِ الجميلةِ، وهو يستمعُ إلى أصواتِ الطُّيورِ وهي تزقزقُ على أغصانِ الشَّجرِ، سمعَ صوتَ مواءٍ قريبٍ، كانَ مواءَ استغاثةٍ.

بحثَ نعسانُ عن صوتِ القطَّةِ التي تموءُ مستنجدةً به، وبعدَ بحثٍ طويلٍ وتتبُّعٍ لمكانِ الصَّوتِ؛ وجدَ القطَّةَ تقفُ على غصنِ شجرةٍ مرتفعٍ تخشى السُّقوطَ، وكانتْ صغيرةً جداً.

فكَّرَ نعسانُ أنَّ القطَّةَ الصَّغيرةَ يبدو أنَّها كانتْ جائعةً، وعندما رأتِ الطُّيورَ على الأغصانِ تسلَّقتِ الشجرةَ حتى وصلتْ إلى ذلكَ الغصنِ المرتفعِ، وأغرتِ الطُّيورُ القطَّةَ الصَّغيرةَ، واعتقدتْ أنَّها ستكونُ وجبتَها المسائيَّةَ اللَّذيذةَ.

لكنَّ الطُّيورَ هربتْ طائرةً محلِّقةً في الفضاءِ، وتركتِ القطَّةَ الصَّغيرةَ، وعندما أرادتِ القطَّةُ النُّزولَ من الشَّجرةِ عجزتْ عن ذلكَ، فهي قادرةٌ على التسلُّقِ؛ لكنَّها لا تعرفُ كيف تنزلُ من الشَّجرةِ بسهولةٍ.

أسرعَ نعسانُ وتسلَّقَ الشَّجرَةَ بمهارةٍ، وشجَّعَ القطَّةَ حتى تمشي على الغصنِ لتصلَ إليهِ،

وأمسكَها بيدِها، وأنزلَها من الشَّجرةِ وأنقذَها من هذا المأزقِ، وكانَ نعسانُ فخوراً بنفسِهِ، وأخبرَ أصدقاءَهُ وأسرتَهُ بذلكَ، فلقبّوهُ بلقبِ «المنقذ الشجاع».

٤٣ ـ نعسانُ وبائعُ الوردِ

استيقظَ نعسانُ متأخِّراً كعادتهِ مثل كلِّ يومٍ من أيَّامِ العطلةِ الصَّيفيةِ، واستأذنَ أمَّهُ بالخروجِ للتنزُّهِ قليلاً بعدَ أنْ تناولَ طعامَ الفطورِ والغداءِ في وقتٍ واحدٍ.

قالَ لأمِّهِ أنهُ ملَّ من النَّومِ وقتاً طويلاً، ويريدُ التَّغييرَ.

قالتْ: لماذا لا تلتحقُ بدورةٍ صباحيَّةٍ في المهاراتِ اليدويَّةِ بدلاً من قضاءِ النَّهارِ بالنَّومِ؟

قالَ لها متنصِّلاً من الفكرةِ: سأفكِّرُ بالأمرِ لاحقاً. الآنَ سأخرجُ قليلاً في نزهةٍ حولَ المنزلِ.

ضحكتِ الأمُّ وقالتْ: وماذا ستكتشفُ حولَ المنزلِ؟ لقدْ قمتَ بالدَّورانِ حولَهُ عشراتِ المرّاتِ، هل ستكتشفُ جديداً اليوم؟

هزَّ نعسانُ رأسَهُ غيرَ مبالٍ بما قالتْ أمُّهُ، ثمَّ مضَى في طريقِهِ دونَ أن يتكلَّمَ، وسار بمحاذاةِ منزلِهِ.

دارَ دورتَهُ المعتادةَ، وعندما وصلَ إلى نقطةِ نهايةِ الطَّريقِ الخلفيِّ، حيثُ ينتقلُ إلى الشّارعِ الآخرِ ليكملَ دورتَهُ، لاحظَ وقوفَ صديقِهِ وجارِهِ معتزّ على إشارةِ المرورِ، وهو يحملُ في يديهِ أزراراً من الوردِ الأبيضِ والأحمرِ والأصفرِ.

استغربَ نعسانُ وصاحَ بأعلى صوتِهِ: معتز، معتز، ماذا تفعلُ هنا؟

التفتَ معتزّ مبتسماً سعيداً بلقاءِ صديقِهِ نعسانَ، فهو لم يلتقِ به منذُ انتهاءِ المدرسةِ قبلَ

أيامٍ، واقتربَ منه وقالَ: أهلاً بصديقي العزيزِ نعسانَ، ألا ترى ما أفعل؟! أنا أبيعُ الوردَ الجميلَ على هذهِ النّاصيةِ. قمتُ خلالَ الأيّامِ الماضيةِ بزراعةِ الكثيرِ من الورودِ في حديقةِ منزلِنا الصَّغيرةِ، وعندما كبرتْ قليلاً قطفتُ بعضَها لأبيعَها هنا، والنّاسُ يشترونَ هذهِ الورودَ.

لقدْ بعتُ خلالَ ساعةٍ واحدةٍ الكثيرَ منها، ولم يتبقَّ معي سوى عددٍ قليلٍ. أليسَ ما أقومُ به شيئاً جميلاً؟

ضحكَ نعسانُ وقالَ مستغرباً: وما هو الجميلُ فيه؟! أنتَ تقفُ هنا تحتَ الشَّمسِ، كما أنَّكَ تتعبُ نفسَكَ بزراعةِ الورودِ، ثمَّ تبيعُها بسعرٍ زهيدٍ، ما الفائدة؟! أنا أطلبُ من أبي المالَ فيعطيني، ولا أحتاجُ لبيعِ الورودِ لكي أشتريَ ما أريدُ.

أجابَهُ معتزّ: الأمرُ يا صديقي ليسَ له علاقةٌ مباشرةٌ بالمالِ. أنا لستُ محتاجاً للمالِ لكي أبحثَ عنه؛ لكنَّها متعةٌ كبيرةٌ أنْ أزرعَ الوردَ، ثمَّ أوزِّعَهُ على النّاسِ بسعرٍ زهيد، هم يفرحونَ بذلكَ، وأنا أيضاً أشعرُ بالسَّعادةِ، كما أني لا أحبُّ الجلوسَ طوالَ النَّهارِ دونَ فائدةٍ، ودونَ نفعٍ لنفسي وللآخرينَ.

قالَ نعسانُ: عجيبٌ ما تفعلُهُ! العطلةُ الصَّيفيةُ للرَّاحةِ والنَّومِ، وليسَ للجهدِ والتَّعبِ!

قالَ معتزّ: بالعكسِ من ذلكَ تماماً، هل تصدِّقُ أني لا أكتفي فقطْ بزراعةِ الحديقةِ وبيعِ الزُّهورِ؟ فأنا التحقتُ منذُ اليومِ الأوَّلِ من العطلةِ في نادٍ للكاراتيه، كما أني حصلتُ على عددٍ من القصصِ والرِّواياتِ الجميلةِ، وانتهيتُ من قراءةِ روايةٍ رائعةٍ منها.

لم يدرِ نعسانُ ماذا يجيبُ صديقَهُ بائعَ الورودِ؛ لكنَّهُ ما أنْ وصلَ إلى بيتِهِ حتى أسرعَ باتِّجاهِ أمِّهِ قائلاً: أمي، أمي، أريدُ أنْ أزرعَ حديقةَ بيتِنا بالورودِ.

احتضنتْهُ الأمُّ وقالتْ: فكرةٌ جميلةٌ يا ولدي نعوس. لكنْ من يريدُ زراعةَ حديقتِهِ عليهِ الاستيقاظ باكراً؛ ليسقيَ زهورَهُ قبلَ اشتدادِ حرارةِ الشَّمسِ.

عقدَ نعسانُ حاجبَيهِ، وقالَ: لا بأس! سأسقيها في المساءِ بعدَ ذهابِ الشَّمسِ.

ضحكتِ الأمُّ وضمَّتْ ابنَها إليها بحنانٍ، وهما يضحكانِ من القلبِ.

سابعاً

قصصٌ متنوّعةٌ

٤٤ ــ حكايةٌ من الخليجِ: الذَّهبُ الأسودُ

٤٥ ــ السّاعةُ التي لا تعرفُ قيمةَ الوقتِ

٤٦ ــ نورةُ الأمّورةُ

٤٧ ــ ليلى والأفكار

٤٨ ــ الزُّجاجُ المكسورُ

٤٩ ــ لا أحبُّ السّاعاتِ

٥٠ ــ النُّجومُ لم تعدْ تلمعُ

٤٤ ـ حكايةٌ من الخليجِ

الذَّهبُ الأسودُ

اجتمعَ الأبناءُ والبناتُ الأحفادُ يوماً في بيتِ جدِّهم بعدَ عودتِهِ من رحلةِ علاجٍ طويلةٍ، وكانَ الجميعُ سعداءَ بعودتِهِ. التفَّ الصِّغارُ حولَ جدِّهمْ بكلِّ فرحٍ وسرورٍ، كانتْ أصواتُهم عاليةً ومزعجةً.

قالَ لهمُ الجدُّ بصوتِهِ الجميلِ: اهدؤوا، اهدؤوا يا أحفادي! سأروي لكمْ حكايةً جميلةً.

صاحَ الجميعُ بصوتٍ واحدٍ: نعم، نعم، هيّا، هيا يا جدّي، أَسمعْنا قصصَكَ الحلوةَ، منذُ زمنٍ لم نسمعْ حكاياتِكَ.

تنحنحَ الجدُّ واعتدلَ في جلستِهِ، وقالَ: يا أجملَ الأطفالِ، اشتقتُ إليكمْ، وإلى ضجيجكمُ الممتعِ، وتابعَ الجدُّ حديثَهُ بالقولِ:

سأحكي لكم عن أيّامِ الماضي عندَما كنّا أطفالاً نلعبُ في (البراحةِ الصَّغيرةِ التيلةِ والجنجفةِ والأورطةِ والحجلةِ وطاق طاق طاقية، والمقصي والدرباحة والصبة والدوامة والغميضة)، والعديدِ من الألعابِ البسيطةِ التي يعرفُها أهلُ الخليجِ قديماً.

فقاطعَهُ الأحفادُ بكلِّ شغفٍ: واو! كلُّ هذهِ الألعاب! يا لكم من محظوظينَ!

يضحكُ الجدُّ ضحكةً طويلةً، ثم يكحُّ، فيأخذ بيدِهِ منديلاً أبيضَ، يمسحُ عرقَ جبينِهِ،

ثمَّ يقولُ باسماً: ليس هذا فقط، كنتُ أيضاً ألعبُ كرةَ القدمِ مع أولادِ (الفريجِ)، وأعني: الحيّ قديماً.

تقولُ بنتٌ صغيرةٌ من البناتِ المتحلِّقاتِ حولَ سريرِ الجدِّ، وهي تمسكُ بيدِها قطعةَ حلوَى، وفي اليدِ الأخرَى كانتْ تصوِّرُ جدَّها بجهازِ (الآيباد): ما أجملَ تلكَ الأيامَ يا جدِّي!

يعلِّقُ الجدُّ على كلامِ حفيدتِهِ الصَّغيرةِ قائلاً: نعم يا بنيّتي مريم، كانتْ حياتُنا بسيطةً وجميلةً؛ لكنْ لم يكنْ عندَنا مثلَ ما عندَكمُ اليوم من هذهِ (الآيباد) العجيبةِ، والألعابِ الإلكترونيةِ العديدةِ، والنوادي الواسعةِ والمسابحِ النَّظيفةِ، ولم يكنْ لدينا مكيِّفاتٌ ولا كهرباءُ، ولم يكنْ هناكَ من وسائلَ ترفيهٍ؛ وحتى الوسائلِ البسيطة، كنّا ننقلُ الماءَ على الدّوابِّ؛ حتى أنعمَ اللهُ علينا بهديَّةٍ عظيمةٍ، يسمِّيها النّاسُ الذَّهبَ الأسودَ.

الجميعُ بصوتٍ واحدٍ: ذهبٌ!؟ وأسودُ؟ عجيب!

يضحكُ حفيدٌ صغيرٌ مشاغبٌ: هههههه، ماذا تقولُ يا جدِّي؟! لا يوجدُ شيءٌ اسمُهُ ذهبٌ أسودُ، الذَّهبُ لونُهُ أصفرُ، هلْ رأيتَ ذهباً أسودَ خلالَ رحلةِ علاجِكَ؟

الجميعُ يضحكُ.

يتنحنحُ الجدُّ من جديدٍ، ويرسمُ على شفتَيهِ ابتسامةً جميلةً، ويقولُ:

الذَّهبُ الأسودُ يا مشعلُ: هو ما تعرفونَهُ باسمِ (النّفط)، وهو ما يُعرفُ أيضاً باسمِ (البترول)، فاللهُ سبحانَهُ أنعمَ علينا بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ التي كانتْ فاتحةَ خيرٍ لكلِّ النِّعمِ، فتغيَّرتْ أحوالُنا، وانتقلْنا من حياةِ الفقرِ إلى حياةِ الغنى.

ولولا النّفطُ يا أحبائي لما تمكَّنتُ من السَّفرِ للعلاجِ في الخارج، ولما كنتُمُ اليومَ تسكنونَ في بيوتكمُ الكبيرةِ والجميلةِ.

أحدُ الصِّغارِ: متى اكتُشفَ النّفطُ يا جدِّي؟

يقولُ الجدُّ: في بداياتِ القرنِ الماضي كان الخليجُ العربيُّ على موعدٍ يا بُنيّ يا محمّدُ مع التَّغييرِ، حيثُ تمَّ اكتشافُ النِّفطِ، وبعدَ ذلكَ عملَ أجدادُكم بجدٍّ من أجلِ استخراجِهِ من باطنِ الأرضِ.

قالَ أحدُ الصِّغارِ: وهلِ اعتمدَ أجدادُنا على تصديرِ النِّفطِ فقطْ؟

يجيبُهُ الجدُّ: لا يا فهدُ، لم يكتفوا بالاعتمادِ على عمليَّةِ تصديرِ النّفطِ وحدِها، بل قاموا بصناعاتٍ عديدةٍ مرتبطةٍ بالنِّفط، كما أنشؤوا الشَّركاتِ المحليَّةَ والعالميَّةَ الكبرى.

بنتٌ صغيرةٌ تقولُ بصوتها الجميلِ: الحمدُ للهِ يا جدِّي، لقدْ كانَ فضلُ اللهِ علينا عظيماً، واليومَ نحنُ ندرسُ في أفضلِ مدارسَ، كما أنَّ لدينا أفضلَ المعلِّمينَ والمعلِّماتِ والجامعاتِ، وديرتُنا أحلى ديرةٍ.

يجيبُها الجدُّ: صدقتِ يا لولوةُ، يا بنيَّتي الحلوة، لقدْ زرتُ معظمَ بلادِ الدُّنيا، لكنَّ بلادَنا العربيةَ تبقى في قلبي، وهي الفُضلَى عندي دائماً، وأنا أحبُّ وطني مثلَ كلِّ النّاسِ في العالمِ؛ لذا أعودُ إلى وطني كلَّ مرَّةٍ بشوقٍ وحنينٍ، وحتى عندما كنتُ مريضاً، كنتُ أتمنى الشِّفاءَ والعودةَ بأسرعِ وقتٍ.

أحدُ الأولادِ الصِّغارِ: جدِّي، جدي، يبدو أنَّ تلكَ الفترةَ كانتْ كلّها أملاً وتطلُّعاً إلى النَّجاح.

يقولُ الجدُّ بعدَ أن يتنهَّدَ تنهيدَةً عميقةً: نعم يا ولدي سلطانُ، كانَ هناكَ إصرارٌ على ذلك، ولم تمضِ فترةٌ طويلةٌ حتى أصبحتْ بلادُنا في صدارةِ الدُّولِ المنتجةِ للنّفط، كما أنَّ دولَ الخليجِ العربيِّ قاموا بنهضةٍ كبيرةٍ غيَّرتِ الكثيرَ منَ الأشياءِ القديمةِ، وبعدما كنّا نعيشُ حياةً فقيرةً بسيطةً أصبَحْنا بفضلِ الذَّهبِ الأسودِ من أكثرِ بلادِ الدُّنيا أماناً وسلاماً، و ننعمُ بحياةٍ رغيدةٍ.

يدخلُ ممرِّضُ الجدِّ ويقولُ : هيّا يا أطفالُ، هيّا يا أحبّاءَ جدِّكم الغالي، لقدْ قضيتُمْ هنا وقتاً طويلاً. الجدُّ الآنَ متعبٌ، ويريدُ أنْ يرتاحَ، ويجبُ أن أعطيَهُ الدَّواءَ.

يقفُ الجميعُ وهم مسرورونَ بحديثِ جدِّهم، يشكرونَهُ على كلامِهِ الطَّيِّبِ، ثمَّ يشكرونَ الممرِّضَ لعنايتِهِ واهتمامِهِ بجدِّهم؛ لكنَّهمْ قبلَ أن يخرجوا طلبوا من جدِّهم أن يعدَهمْ بأنْ يكملَ لهم حكايةَ الذَّهبِ الأسودِ، بعدَ أنْ يرتاحَ أو في يومٍ آخرَ.

فرحَ الجدُّ لأنَّ أحفادَهُ الصَّغارَ يحبُّونَ الماضي، ويقدِّرونَ نعمةَ اللهِ عليهم.

٤٥ ـ السّاعةُ التي لا تعرفُ قيمةَ الوقتِ

في مصنعِ ساعاتٍ عالميٍّ مشهورٍ، خرجتْ ساعةٌ جميلةٌ جداً من المصنعِ، وكانتْ ساعةً رياضيَّةً مصنوعةً خصّيصاً للفتيانِ والشَّبابِ؛ لكنَّها كانتْ بالرّغمِ من دقَّتِها الشَّهيرةِ التي يحرصُ الصنّاعُ عليها؛ لا تعرفُ قيمةَ الوقتِ.

كانت تحبُّ الرَّكضَ واللَّعبَ والتنقُّلَ في عقاربِها كيفَ تشاءُ، توقِفُ عقربَ السّاعاتِ حيناً، ثمَّ تجعلُ عقربَ الدَّقائقِ أسرعَ من عقربِ الثَّواني، ثمَّ تبطئُ عقربَ الثَّواني؛ لتجعلَهُ يدورُ كما يدورُ عقربُ السّاعاتِ.

السّاعةُ هذهِ كانت تتسلَّى بالوقتِ في علبتِها، وهي متواريةٌ عنِ النّاسِ؛ لأنَّ أحداً لم يقمْ بشرائِها بعدُ.

وفي يومٍ اشترى فتىً صغيرٌ مجتهدٌ هذهِ السّاعةَ المرِحةَ، وقامَ البائعُ بضبطِ عقاربِها من جديدٍ، دونَ أن يعلمَ أنَّ هذهِ الساعةَ مشاكسةٌ، ولا تحبُّ الانضباطَ.

تسلَّمَ المشتري ساعتَهُ الجديدةَ بحضورِ أبيهِ؛ الذي كافأَهُ بشرائِها له؛ لتفوّقهِ في دراستِهِ.

السّاعةُ الجديدةُ ما إن خرجتْ من بينِ يدي البائعِ، وأصبحتْ في معصمِ الفتى الصَّغيرِ؛ حتى بدأتْ بمشاكساتها ولعبِها المعتادِ، والذي يؤكِّدُ عدمَ اكتراثِها بأهميَّةِ الوقتِ وقيمتِهِ.

في اليومِ التّالي؛ لم يستيقظِ الفتى للذّهابِ إلى المدرسةِ؛ لأنَّ السّاعةَ أخَّرتْ رنينَ جرسِها ساعتينِ كاملتينِ.

كانَ الفتى يستيقظُ بنفسِهِ في وقتٍ مبكرٍ قبلَ خروجِ أبيهِ إلى العملِ، يتناولُ فطورَهُ ويقصدُ المدرسةَ، وعندما استيقظَ الأبُ والأمُّ لم يكونا يعتقدانِ أنَّ ابنَهما ما زالَ نائماً في فراشِهِ.

استيقظَ الفتى بعدَ أنِ انقضتْ ساعتانِ عنِ الموعدِ المحدَّدِ، فأسرعَ بالذّهابِ معتذِراً عنِ التَّأخيرِ، وظنَّ الولدُ أنهُ أخطأَ في ضبطِ ساعتِهِ الجديدةِ.

وفي مساءِ ذلكَ اليومِ حرصَ الفتى على ضبطِ السّاعةِ، وتأكَّدَ مراراً منَ الموعدِ المضبوطِ قبلَ أنْ ينامَ؛ لكنَّ السّاعةَ لا تستطيعُ أنْ تغيِّرَ عادتَها في المشاكسةِ واللَّعبِ، فحرَّكتْ زرَّ ضبطِ السّاعةِ إلى الوراءِ ساعةً واحدةً.

وفي اليومِ التّالي؛ استيقظَ الفتى مبكراً ساعةً كاملةً، أسرعَ إلى المدرسةِ؛ ليكتشفَ أنها لم تفتحْ أبوابَها بعدُ، فجلسَ منتظراً حتى جاءَ الحارسُ، وفتحَ له البابَ.

اغتاظَ الفتى كثيراً من ساعتِهِ، وأدركَ أنَّ السّاعةَ تحبُّ اللَّعبَ، وأنَّها لا تعرفُ قيمةَ الوقتِ، فطلبَ منَ والدِهِ أن يذهبَ معهُ إلى البائعِ لتبديلِ هذهِ السّاعةِ.

في متجرِ السّاعاتِ أخبرَ الفتى البائعَ بقصَّتِهِ معَ السّاعةِ، فضحكَ البائعُ كثيراً، وأعطاهُ ساعةً أجملَ منَ الساعةِ المشاكسةِ، ووعدَهُ أن يعيدَ السّاعةَ إلى المصنعِ لكي تتأدَّبَ، ويعيدوا ضبطَها من جديدٍ.

وفي المصنعِ؛ وبعدَ مراقبةِ السّاعةِ، تأكَّدوا أنَّها لا تصلحُ لتكونَ ساعةً في معصمٍ، ولا بدَّ من إتلافِها؛ لأنَّ فيها عيباً كبيراً، فهي صُنعتْ لتكونَ الدقَّةَ شعارُها، لا لتكونَ مشاكسةً ولا تعرفُ قيمةَ الوقتِ. وكانت نهايتُها في سلَّةِ النِّفاياتِ، لا في معاصمِ الفتيانِ الأذكياءِ الذينَ يقدِّرونَ الوقتَ ويعرفونَ أهميَّتَهُ في حياتِهم.

٤٦ ـ نورةُ الأمورةُ

نورةُ في بيتها ملكةٌ أو أميرةٌ، تراها دائماً مسرورةً مبتهجةً، تناديها أمُّها (نورة الأمورة).

شاهدتْ مرَّةً من نافذةِ غرفتِها بنتاً لطيفةً تسيرُ، وعلى ظهرِها حقيبةٌ كبيرةٌ.

سألتْها: إلى أينَ تذهبينَ بكلِّ هذا الحملِ الثَّقيلِ؟

أجابتْ: ألا تدرينَ؟ إلى المدرسةِ.

ثمَّ مضتِ البنتُ في طريقِها مسرعةً.

تعجَّبتْ نورة: مدرسة!؟ مدرسة!؟ ما معنى مدرسة؟ لم أسمعْ بهذا الاسمِ منْ قبلُ؟

سألتْ أمَّها: ما معنى مدرسة؟

قالتْ: المدرسةُ بيتٌ جميلٌ، فيه يتعلَّمُ الأطفالُ كلَّ العلومِ المفيدةِ، وكذلكَ يلعبونَ ويمرحونَ.

نورة: ولماذا لا أذهبُ أنا إلى المدرسةِ؟

الأمُّ: ما زلتِ صغيرةً، في العامِ المقبلِ إنْ شاءَ اللهُ ستذهبينَ إلى الرَّوضةِ.

فكَّرتْ نورة، هي أيضاً تريدُ أنْ تتعلَّمَ، فقالتْ:

أمي، أحضري لي أوراقاً وأقلاماً لأتعلَّمَ.

قرَّرَتْ نورة أن تشكرَ الفتاةَ الصَّغيرةَ، فوقفَتْ تنتظرُها قربَ النّافذةِ، وعندما اقتربتْ،

وكانتْ ستصلُ إلى بيتِها عائدةً، قالتْ نورة: لقدْ أصبحتُ مثلكِ طالبةً، وأريدُ أنْ أشكرَكِ؛ لأني تعلَّمتُ منكِ أنْ أكونَ طالبةً.

فرحتِ الفتاةُ وأهدتْها أجملَ قلمٍ معَها، ثمَّ ركضتْ إلى بيتِها لتخبرَ أمَّها بقصَّةِ (نورة الأمورة)؛ صديقتِها الجديدةِ.

٤٧ ـ ليلى والأفكار

قالتْ ليلى: يا تُرى منْ أيِّ مكانٍ تأتي الأفكارُ؟! ترتيبُها يخنقُني، يجعلُ تفكيري يمتدُّ مثل مطاطٍ تحتَ شمسٍ، ثمَّ تابعتْ: حرارةُ الصَّيفِ تشتدُّ، وأنا أكرهُ التَّكييفَ، وكتمَ أنفاسي خلفَ نوافذَ وأبوابٍ موصدةٍ، أحبُّ المتنزَّهاتِ والحدائقَ، والمكوثَ أمامَ مساحةِ بحرٍ ساعةَ ضحى حتى الظهيرة، وهذا أمرٌ يستحيلُ بعدَ أنْ وصلتِ الحرارةُ في درجاتِها إلى «الخمسين».

التفتتْ حولَها ثمَّ قالتْ: لا بأس! لنْ تمنعَني الشَّمسُ عن مزاولةِ ما أحبُّ؛ لكني بالتَّأكيدِ لنْ أمكثَ طويلاً تحتَ اللّهَبِ، فهذا أمرٌ مستحيلٌ، وسوفَ أتحوَّلُ في دقائقَ إلى قطعةِ لحمٍ مشويَّةٍ.

وعادتْ لتقولَ: يا إلهي، ترتيبُ الأفكارِ يزعجُني، ويتعبُ تفكيري، فأنا لمْ أحبَّ الترتيبَ يوماً؛ حتى حروف العربيَّةِ لا أعرفُ ترتيبَها، وأجهلُ جدولَ الضَّربِ، وغرفتي دائماً غارقةٌ في فوضى.

هذا أنا، ولنْ تستطيعَ الشَّمسُ تغييري، أتحدّاها، وحتى في عزِّ حرِّ، ولو جاوزتْ حرارَتُها الخمسين.

سوفَ أواظبُ، مثلَ الشَّمسِ على الاستيقاظِ مبكراً، والعملِ بنشاطٍ، فلكلٍّ عاداتُهُ التي يؤمنُ بها، غيرَ أنَّ ترتيبَ الأفكارِ يحرقني، ربما أكثر من حرِّها.

٤٨ ـ الزُّجاجُ المكسورُ

تنهّدتْ خلفَ زجاجِ المنزلِ المكسورِ، المكسوِّ بغلالةٍ ناعمةٍ من الغبارِ السّاكنِ في هذا البهوِ الواسعِ الممتدِّ، واهتزَّتْ أصابعُها وهي تقتربُ من البابِ؛ فأصابَها ارتعاشٌ ينبضُ بتلكَ الأيّامِ المحمَّلةِ بالألمِ، والملوَّنةِ بالدِّماء.

استجمعتْ كلَّ قواها عندَما همَّتْ بِالدُّخولِ؛ تفرَّستْ بعلامةٍ قديمةٍ كانتْ قدْ حفرتْها بمفتاحٍ قديمٍ قبلَ أكثرَ من أربعينَ سنة.

فزعتْ، لم تقوَ قدمَاها الثَّقيلتانِ على الانتقالِ ولو خطوةً واحدةً لوطءِ ترابِ المكانِ، حسبتْهُ شيئاً شريفاً لا ينبغي مسُّهُ لسكناهُ في مكانٍ عزيزٍ عليها، وربما كانَ اعتداءً على حرمةِ المكانِ المحفورِ في الذّاكرةِ، مثل نقشٍ على صخرةٍ مصقولةٍ.

عادتْ بها الذّاكرةُ إلى أيّامِ الطُّفولةِ، وهي لا تزالُ تذكرُ بعضَ الكلماتِ العربيَّةِ.

أمُّها «الجبارة» رفضتِ الانصياعَ لأمرِ إخلاءِ المنزلِ؛ وظلّتْ معسكرةً فيه؛ حتى ماتتْ من الجوعِ. صارتِ الطِّفلةُ تبكي، ووجدتْ نفسَها بعدَ ذلك في بلادٍ بعيدةٍ، تعيشُ بينَ أسرةٍ طيِّبةٍ عوضتْها فقدانَها للأمِّ والأبِ.

عادتِ الذّاكرةُ إلى الماضي، يومَ كانتْ طفلةً تملأُ الدّارَ ضجيجاً وتطبيلاً، هناكَ كانتْ لعبتُها الصغيرةُ، هناك، تحتَ الدَّرجِ، كانتْ تجلسُ لساعاتٍ، تعتبرُهُ مكاناً خاصاً، تعتبرُهُ ملكَها، لا يجسرُ أحدٌ على الدُّنوِ منه دونَ إذنِها.

فجأةً؛ اختفى أبوها، ورأتْ أمَّها تبكي، لم تكتشفْ سرَّ البكاءِ، لكنَّ الصغيرةَ أدركتْ أنَّ أباها رحلَ إلى الجنّةِ شهيداً، بعدما تصدَّى لعصاباتٍ مجرمةٍ أتتْ من بعيدٍ.

طلبتِ العصاباتُ من أمِّها إخلاءَ المنزلِ، فرفضَتْ وتحصَّنتْ لأيّامٍ دونَ طعامٍ، تحملُ بندقيةً قديمةً تهدّدُ بها من يحاولُ اقتحامَ المنزلِ.

بقيَ قليلٌ من الطَّعام تركتْهُ لطفلتِها، فعاشتِ الطِّفلةُ وماتتِ الأمُّ، وتذكَّرتِ الطِّفلةُ «الكبيرةُ» كلَّ ذلكَ بعدَما قرَّرتِ العودةَ إلى وطنِها بجوازِ سفرٍ غربيٍّ واسمٍ غربيٍّ، إلّا أنَّ كلَّ ما هو عربيٌّ اشتعلَ في نفسِها عندَما جاءَتْ ضمنَ وفدٍ سياحيٍّ.

فوجئتْ أنَّ بيتَها القديمَ لا يزالُ جاثماً على ربوةٍ عاليةٍ، ربما هجرَهُ العصاباتُ لشدَّةِ بساطتِهِ، ولمكانِهِ البعيدِ عنِ المدينةِ. اشترتِ الطِّفلةُ «الكبيرةُ» بيتَها من الإدارةِ المدنيَّةِ التي تحتلُّ المنطقةَ، ولم تكشفْ لأحدٍ سرَّ هذا الشِّراءِ، بلْ إن أحدَهمُ استهزأَ بها، وظنَّ أنها مغفَّلةٌ.

وضعتْ لوحةً كبيرةً عليها اسمُها الحقيقيُّ، لا اسمَها الغربيَّ الموجودَ على جوازِ السَّفرِ، بلِ اسمُها القديمُ، وتحتهُ عبارةٌ: هنا استشهدَ أبي وأمي، في أرضي فلسطين.

٤٩ ـ لا أحبُّ السّاعاتِ

أكرهُ السّاعاتِ

نعم، أكرهُ كلَّ أنواعِ السّاعاتِ: الرَّخيصةِ منها والباهظةِ الثَّمنِ، لم أنسجْ معها في أيِّ أيامِ حياتي علاقةَ تناغمٍ وتفاهمٍ؛ حتّى إنّي لم أحملْ في معصمي ساعةً إلا اضطراراً؛ بعدَ أنْ كبرتُ وشابَ نصفُ شعري، وباتتْ طبيعةُ عملي تلزِمني بذلكَ.

منذُ طفولتي والسّاعةُ تشكِّلُ هاجساً لي، كانتْ توقظُني من أحلامي الصَّغيرةِ، وتقذفني في الشَّوارعِ الضيِّقةِ، نحوَ المدرسةِ؛ التي كانتْ عقارب ساعاتها تمضي مثلَ السُّلحفاةِ المسنَّةِ، فلم تكنِ السّاعةُ تتحرَّكُ بسهولةٍ.

عندما كبرتُ اعتقدتُ أني تخلَّصتُ من هواجسي وجنوني؛ لكنَّ الساعةَ ظلَّتْ ذلكَ الوحشَ الذي ينقضُّ على كلِّ شيءٍ جميلٍ أحبُّهُ، وكلِّ اللَّحظاتِ الرّائعةِ التي أعيشُها، فيما كانت تسيرُ ببطءٍ فظيعٍ في كلِّ أمرٍ أودُّ أنْ أنتهيَ منه بسرعةٍ.

اليومَ، فجأةً، ودونَ سابقِ إنذارٍ؛ أعلنتُ تمرُّدي على كلِّ العقاربِ، الصغيرةِ منها والكبيرةِ، لا أدري كيفَ جاءتْني الجرأةُ،لم أكنْ يوماً بهذهِ الشَّجاعةِ.

سأحطِّمُ كلَّ ساعاتِ المنزلِ، لا، بلْ كلُّ ساعاتِ الدُّنيا، أريدُ أنْ أحيا هكذا من دونِ زمنٍ، أنامُ عندما أريدُ، أصحو عندما أحبُّ، أخرجُ إلى عملِي وقتَ ما أشاءُ، آكلُ وأشربُ وأعيشُ بتلقائيَّةٍ بالغةٍ.

بصراحةٍ، لقدْ أعلنتُ إفلاسَ الزَّمنِ، أنا لا أريدُ الالتزامَ بحركاتِ العقاربِ وسكناتِها، كأنَّني رهينُها، أسيرُ بينَ دقّاتِها ورنّاتِها، أدورُ ـ مثلَها ـ في حلقةٍ فارغةٍ، أعيشُ بينَ أرقامِها وعقاربِها، كمَنْ يحيا في جحرِ العقاربِ والأفاعي، فهلْ يعقلُ أنْ أعيشَ بينَ العقاربِ؟ مستحيلٌ ! هلْ أنا مجنونٌ إلى هذا الحدِّ؟

مجرَّدُ التَّفكيرِ بالسّاعةِ ودقّاتِها يولِّدُ في سريرتي شيئاً منَ الرُّعبِ المجنّحِ؛ تكتكاتُها ورنّاتُها مثلُ قصفِ الصَّواريخِ، وأزيزِ المدافع؛ حتى أجملُ السّاعاتِ تبدو لي دميمةً قبيحةً، لا أجدُ لها وصفاً في الطَّبيعةِ.

هناكَ عداوةٌ مزمنةٌ بيني وبين الزَّمنِ، لم أتغلَّبْ يوماً على هذهِ العقدةِ.

لكنْ هلْ سيسمحونَ لي بذلكَ؟ هلْ يقبلُ أحدٌ بهذا التمرُّدِ؟

سأُطردُ من عملي دونَ شكٍّ، لن يلتزمَ أحدٌ معي بموعدِ اللِّقاءِ، فأنا متمرِّدٌ ضدَّ الزَّمنِ.

وهلْ سيسكتُ عليَّ الزَّمنُ؟

سيفضحني أمامَ المكانِ واللا مكانِ، سيقودني حتماً في طرقاتٍ لا زمنَ فيها، ربما أعرَى، أجوعُ، أتشرَّدُ!

لا بأس! سأواصلُ الاعتراضَ حتى يرضخَ لي الزَّمنُ، ويستسلمَ، لنْ أتنازلَ عنْ آخر ثورةٍ لي؛ حتى هذهِ الأحلام لن يسمحوا لي بها.

فجأةً! امتدَّتْ يدُ أمّي بحنانٍ، أيقظتْني من سُباتٍ عميقٍ، وأحلامٍ فاتنةٍ، نهضتُ مسرعاً، رمقتُ السّاعةَ التي لا تزالُ في مكانِها مسنَّدةً ـ هناكَ ـ على طاولةٍ جانبيّةٍ، وكتفي لا يزالُ يشعرُ بتربيتِ يدِ أمي؛ الأجملِ بكثيرٍ من رنينِ السّاعةِ المنبِّهةِ.

٥ـ النُّجومُ لم تَعُدْ تَلْمَعُ

في يومٍ، ساعةَ مساءٍ، والمساءُ في نفسي مزدحمٌ على الدَّوامِ، كانتْ نجومُ سمائي في أمكنتِها كالعادةِ، ترسمُ في ليالي نفسي هشيماً من فرحٍ، كانَ مساءً معتماً.

تفرّستُ في حقيقتها، في جوهرها، في حركاتها وسكَناتها، وصحتُ في أعماقي: «ألستُ أحلمُ؟!» أليسَ حلماً أن تتجسَّدَ الأحلامُ أمامنا؛ فلا نصدق ما تراهُ العينُ وما تسمعهُ الأذنُ؟!».

صارتْ نظراتي ترتجفُ في اللَّحظةِ الأولى، وكنتُ بتفاصيلي أرتعدُ مثلَ نورِ مصباحِ جدَّتي القديمِ؛ قد يكونُ ذلكَ مجرَّدَ توجُّسٍ لا مبرِّرَ له، أو صدمةً غيرَ متوقَّعةٍ، رُبما! لستُ أدري.

ثمَّ توارتْ في حجابٍ، كنجمةٍ خلفَ سحابةٍ، تسرقُ الأحلامَ من واقعِها، تملأُ البحرَ ماءً، تزرعُ شهبَ السّماءِ؛ لكنَّها وفي كلحِ البديعةِ كتلكَ اللَّحظةِ، فما أبدعَ الأحلامَ حينَ تتراءى في جنباتِ حقيقتِها! وما أنبهَ النَّفسَ حينَ تتقمَّصُ أحلاماً تضيءُ في دياجيرَ لا تنتهي!

وفي لحظاتٍ تبدَّلَ كلُّ شيءٍ، لم يعدِ المكانُ هو المكانَ، ولا الزَّمانُ هو الزَّمانَ، أمّا أنا فلستُ أنا، كانتِ النُّجومُ في مكانها؛ لكنَّها لم تعدْ تلمعُ مثلَ الماضي.

(نهاية الجزء السابع صيف ٢٠١٣)

المحتوى

المحتوى

أولاً: حكاياتٌ عربيَّـــةٌ

١ ـ ابنُ المقفَّعِ: صاحِبُ كِتابِ كَليلَة ودمْنَة ٧
٢ ـ ابنُ ماجِدٍ: أَسَدُ البِحارِ ٩
٣ ـ عبّاسُ بنُ فرناسَ: الطيّارُ الأوّلُ ١٣
٤ ـ بلقيسُ: ملكةُ سبأ ١٥
٥ ـ جحا: الحكيمُ المضحكُ ١٧
٦ ـ ابنُ النَّفيسِ: الطَّبيبُ الأنيسُ ١٩
٧ ـ ابنُ سينا: الطَّبيبُ العالمُ ٢٣
٨ ـ عامرٌ وجابرُ بنُ حيّانَ ٢٩

ثانياً: حكاياتُ الأساطيرِ

٩ ـ القِصصُ التي لا تصدَّقُ بسهولةٍ ٣٥
١٠ ـ قمَّةٌ شَديدةُ الانْحِدارِ ٤١
١١ ـ الفَتى الطَّيِّبُ ٤٣

١٢ ـ الرَّجلُ الطَّيّبُ والملكُ الشِّرِّيرُ ٤٥
١٣ ـ الطّائرُ الخُرافيُّ العجيبُ ٥١
١٤ ـ الأميرُ اليتيمُ ٥٧

ثالثاً: قصصُ الحيواناتِ

١٥ ـ البلبلُ الحزينُ والدُّودةُ الحكيمةُ ٦٩
١٦ ـ نملةٌ تركضُ قربَ النَّهرِ ٧٣
١٧ ـ في بيتِنا بقرةٌ تبيضُ ٧٥
١٨ ـ الهدْهدُ هدهودُ ٧٧
١٩ ـ الفيلُ أبو خرطوم ٨٣
٢٠ ـ الفراشةُ مشمشةُ والزَّهرةُ زوزو ٨٥
٢١ ـ العصفورُ والغصنُ ٨٧
٢٢ ـ البرغوثةُ الشَّقراءُ والقطَّةُ السَّوداءُ ٨٩

رابعاً: قصصُ النَّباتاتِ

٢٣ ـ التُّفاحةُ التي لم توقظها الشَّمسُ ٩٣
٢٤ ـ شجرةُ الموزِ ٩٥
٢٥ ـ عنقودُ العنبِ ٩٩
٢٦ ـ وَرَقَةُ التُّوتِ الخَشِنَةِ ١٠١

٢٧ ـ الزَّنبقةُ البيضاءُ ١٠٣
٢٨ ـ الشُّجيرةُ الطَّموحةُ ١٠٥
٢٩ ـ الخوخةُ والمشمشةُ والدّرّاقةُ ١٠٧
٣٠ ـ توتة توتة وخلصت الحدوتة ١٠٩

خامساً: حكاياتٌ بحريَّـــةٌ

٣١ ـ الأخطبوطُ المشاغبُ الذكيُّ ١١٣
٣٢ ـ السَّمكةُ التي طارتْ ١١٧
٣٣ ـ القنديلُ الحزينُ سعيدٌ ١٢١
٣٤ ـ دجاجةُ البحرِ: المفترسةُ الجميلةُ ١٢٣
٣٥ ـ الحبارُ العملاقُ وحوتُ العنبرِ ١٢٥
٣٦ ـ نجمةُ البحرِ تبحثُ عنْ قمرٍ ١٢٩
٣٧ ـ القرشُ البهلوانُ المدهشُ ١٣٣
٣٨ ـ حصانُ البحرِ وحصانُ البرِّ ١٣٥

سادساً: مغامراتُ نعسانَ الكسلانِ في الصيفيةِ

٣٩ ـ نعسانُ يريدُ العملَ ١٤١
٤٠ ـ مثلَّجاتُ نعوس ١٤٥
٤١ ـ نعوسُ حارسُ مرمى ١٤٩

٤٢ ـ نعسانُ: المنقذُ الشُّجاعُ ١٥٣
٤٣ ـ نعسانُ وبائعُ الوردِ ١٥٥

سابعاً: قصصٌ متنوِّعةٌ

٤٤ ـ حكايةٌ من الخليجِ ١٦١
الذَّهبُ الأسودُ ١٦١
٤٥ ـ السّاعةُ التي لا تعرفُ قيمةَ الوقتِ ١٦٥
٤٦ ـ نورةُ الأمّورةُ ١٦٧
٤٧ ـ ليلى والأفكار ١٦٩
٤٨ ـ الزُّجاجُ المكسورُ ١٧١
٤٩ ـ لا أحبُّ السّاعاتِ ١٧٣
٥٠ ـ النُّجومُ لم تَعُدْ تَلْمَعُ ١٧٥
المحتوى ١٧٩